

التوحيد ومعرفة الإنسان (2): البعد الفلسفي

هادي قبيسي

الكلمات المفتاحية: هادي قبيسي، التوحيد، معرفة الإنسان، البعد الفلسفي، الفلسفة الوجودية، الدنيا، الآخرة.

قدمت باختصار لهذا الموضوع الشائك في المقالة الأولى، وهي بلا شك شديدة الاختصار في مقارنة قضية بهذه السعة وتشهد نقاشًا منذ فترة طويلة، واستكمالًا للمحاولة التي استندت إلى مقارنة معيارية، تطرح هذه الورقة الفصل الأول من الفصول الأربعة التي قسمت المعايير النقدية على أساسها، وهي تتعلق بالمعايير الإسلامية في نقد الفكر الغربي وما أنتجه تحت عنوان "العلوم الإنسانية" من الزاوية الفلسفية الوجودية.

تبنى المقاربة هنا على الاختلاف العميق بين الوحي الإلهي والفكر الغربي الاختزالي في النظرة إلى الإنسان والوجود، وما ينتج عنها من اختلافات ضمن الإطار الفلسفي والتكويني، وتنقسم إلى (1) القضايا الإنسانية المباشرة و (2) القضايا الفلسفية الكلية في النظر إلى الوجود:

- 1) **القضايا الإنسانية** : الإنسان / الله، استقلال / ارتباط، جسد / روح، النفس / الفطرة، البيئة / الابتلاء
- 2) **القضايا الكلية** : دنيا / آخرة، البقاء / الفناء، المادة / المجرد، الظواهر / التجليات، الكثرة / الوحدة

معايير فلسفية وجودية		
تنكر وجود الآخرة ولذلك تلغي الغاية من حياة الإنسان	1	دنيا / آخرة
تبعد الإنسان عن الآخرة بصرف فكره وعزيمته واهتمامه نحو الأمور الدنيوية		
باهتمامها بالقضايا المختلفة والمتغيرة تغيب الإنسان عن وجود روحه الثابتة	2	جسد / روح
باهتمامها بقضايا الدنيا تغفل الإنسان عن وجوده الشفاف الذي يدرك		

		نفسه بنفسه حضورياً
3	الإنسان / الله	تنظر إلى الإنسان على أنه محور الوجود وبالتالي تنكر فطرة التوجه إلى الله تسعى لتحويل الإنسان إلى إله من خلال المعرفة بكل تفاصيل الوجود
4	البقاء / الفناء	تنظر إلى الإنسان بشكل لا مباشر على أنه باقٍ تنظر إلى فناء الإنسان بشكل لا مباشر على أنه نهايته تسعى إلى بقاء الإنسان في حين أن غايته الفناء في الله
5	المادة / المجرد	تصرف الإهتمام عن القضايا المجردة العقلية والروحية وبالتالي تضعف قدرة الإنسان على إدراكها والإيمان بها تقدم بديلاً معنوياً عن المعرفة الحقيقية بالإنسان
6	الظواهر / التجليات	تفصل الظواهر الإنسانية عن الرؤية التوحيدية للكون وحقائق الوجود لا تعتبر أن الظواهر الإنسانية تتأثر بالإذن الإلهي والإرادة والتأثير الإلهيين
7	الكثرة / الوحدة	تغرق الإنسان في عالم الكثرة والتغير وتضعف إمكانيات العقل والتصور على رؤية الوحدة
8	النفس / الفطرة	تجهل وجود الفطرة وبالتالي تفتقد لوجود أي شيء ثابت في النفس البشرية تنكر وجود الفطرة وبالتالي تجهل طبيعة الإنسان (غايته، صفات الكمال الحقيقي، ..)
9	البيئة / الإبتلاء	تصف البيئة على أنها فوضى وحالة عدائية تجاه الإنسان، لا أنها ساحة بلاء واختبار تصف البيئة الإجتماعية على أنها غابة، يعيش الإنسان فيها حالة عدم انسجام مع الذات
10	استقلال /	تنكر ارتباط الإنسان بالله، من خلال النظر إلى الظاهرة الإنسانية بشكل مستقل

ارتباط	تنفي آثار التوكل في الحياة الفردية والاجتماعية
--------	--

1- دنيا / آخرة

خاضت المجتمعات الأوروبية إبان "عصر النهضة" صراعاً حاسماً مع المقولات الدينية كانت خلفيته الصدام مع المؤسسة الدينية والسلطة الكبيرة التي كانت تحتازها آنذاك¹، تضخم السلطة هذا أدى إلى نشوء الحروب الدينية على خلفيات سياسية ومذهبية، حروب أرهقت الفرد والمجتمع الأوروبي ودفعت به إلى البحث عن مخرج من الاقتتال الأهلي الأيديولوجي فكان المهرب المتاح آنذاك التخلي عن مضمون الدين في رؤيته الكونية ومنظومته التشريعية بالكامل وإن بالتدرج²، وكان البديل هو في التنظير للحياة الأفضل في الأروقة الأكاديمية والمنتديات الفكرية والأدبية وفي هذا الرحم تكونت نطفة العلوم الإنسانية الحديثة، وبرزت "النزعة للمقاربة العلمية مما أدى إلى تغيير جذري في النظرة الكلية والمفاهيم لدى البشر، وبدأ التفكير العقلاني والنقدي لاكتساب المعرفة يحل محل التفسيرات التقليدية القائمة على أسس دينية في شتى المجالات"³ ولذلك تحركت العقول الباحثة عن الحل البديل بعيداً عن المقولات الدينية وأهمها الحياة الأخروية، فكان من خصائص السرديات والنظريات الناتجة عن هذا الحراك أنها **تنكر وجود الآخرة ولذلك تغيب الغاية من حياة الإنسان** وهذا مشابه لما تحيلنا إليه الآية السابعة والثلاثون من سورة المؤمنون {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}، وبهذه الخلفية بدأ إنتاج منظور جديد لحياة الإنسان الأوروبي محصور في الإطار الدنيوي المباشر، حيث حض أحد رواد هذا الاتجاه وهو أوغست كونت على "إقامة ما سماه (دين الإنسانية) الذي يقوم على الميل عن الإيمان القطعي بالعتيدة إلى الارتكاز إلى المبادئ العلمية، وسيكون علم الاجتماع النواة لهذا الدين الجديد"⁴.

بناءً عليه انصب المنظور البحثي والنصي الغربي نحو اهتمامات الإنسان الدنيوية الحياتية والمعيشية وحتى النص الفلسفي على أنه إنسان يعيش في هذه الدنيا، وتنحصر حركته الوجودية فيها، وبذلك يتموضع نطاق الجهد والبصيرة للمنشغل بالفكر الغربي في هذا الإطار، ويغفل عن الغاية من الحياة على هذه الساحة الدنيوية، ويحصل لديه انفصال بين الساحة الدنيوية والأخروية رغم إيمانه بها، ويفقد المعايير الأخروية في النظر إلى الشؤون الدنيوية، ويصبح للدنيا معايير وفهم خاص بها قائم على

¹ See: Israel, Jonathan / The Radical Enlightenment.

² See: Voegelin, Eric / Religion and The Rise of Modernity.

³ غندر، أطلوني / علم الاجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 54.

⁴ غندر، أطلوني / علم الاجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 63.

أساس انفصالها عن العالم المستقبلي الأخرى الذي ينتقل بنا من حالة الاستتار والمحدودية المادية إلى حالة الانكشاف والإطلاق في العالم الآخر. الانشغال الدائم بالمادة المعرفية الغربية يصبح داعياً إلى سيطرة الإحساس بوجود الدنيا المباشر وفقدان الإحساس بالوجود الأخرى الغيبي تدريجياً، لأن النفس تغرق في الغفلة من ناحيتين، الأولى على المستوى الزمني، أي الاستغراق الواقعي لوقت طويل بالشؤون الدنيوية، والثانية سيطرة الحسابات العقلية المباشرة على ميكانيزمات التفكير وتشبث العادات الفكرية المباشرة والمادية باليات التفكير والتأمل واتخاذ القرارات.

البيئة الأكاديمية والعلمية المعاصرة، سواءً في دول العالم الإسلامي أو خارجه لا فرق، بطورها وضرورتها والحاجة إليها من قبل الفرد والمجتمع وما أملته من ارتكاز شبه كامل إلى النص الغربي، وضعت الفرد المنضوي في نطاقها في ظل النص الناتج عن تلك التحولات التاريخية الأوروبية والنصوص المتأثرة به، ولم يلتفت الكثيرون إلى أن من طبيعة هذه النصوص من حيث الإطار والسياق أو المضمون المباشر أن تبعد الإنسان عن الآخرة بصرف فكره وعزيمته واهتمامه نحو الأمور الدنيوية ورغم أن هذا التأثير يتفاوت تبعاً للأفراد ويحصل بالتدرج ودون التفات إلا أننا ينبغي أن نكون على معرفة وإدراك لطبيعة هذا الانتاج المعرفي وبالتالي لكيفية التعامل معه فكراً، ونظراً، وتطبيقاً فلا نقع أسرى لتداعيات التاريخ الأوروبي، بحيث تصبح الأولويات والاهتمامات وكيفية توزيع الجهد والطاقة الفردية خاضعاً لتنظيم الموضوعات البحثية، والمعرفية، والفكرية المختلفة في المنظومة الأكاديمية ذات المبنى الغربي، وتسيطر منظومة القضايا المحددة في الفكر المادي الدنيوي على اهم الفكر، ويصبح تشكل الصورة العقلية عن الوجود الخارجي ومساحة الانشغال به منوطاً بالأبعاد التي يرسمها التشكل الثقافي للفرد المنشغل بالنص والبحث الدنيوي، وكما يقول أنطوني غدنز "يستطيع علم الاجتماع أن يزودنا بالتنوير الذاتي وتعميق فهمنا لأنفسنا، وكلما ازدادت معرفتنا بالبواعث الكامنة وراء أفعالنا وبأساليب عمل المجتمع الذي نعيش فيه، تعززت مقدرتنا على التأثير في مستقبلنا"⁵، وهكذا يتشارك البعد النفسي والعقلي والعملي الانشغالي في تحديد الهوية الفكرية والفلسفة الكونية للمثقف، أو الباحث، أو حتى الطالب الجامعي المسلم المتدين، فيعيش في الحد الأدنى انفصاماً بين معتقداته الدينية من جهة ونظراته إلى الإنسان والمجتمع من جهة أخرى، تتجلى هذه المؤثرات السلبية في عدد كبير من المجالات العلمية الأكاديمية المختصة بالعلوم الإنسانية مثل علم الاجتماع بفروعه المختلفة، وعلم السياسة، والاقتصاد وكذلك ما يتعلق بالترويج والتسويق. وليس المطلوب هو اجتناب هذه العلوم والمعارف ولا العكوف على إنتاج بديل لها قبل الخوض فيها، ولكن يمكن البدء بخطوات تأسيسية متيسرة تخفف من احتمالات وامكانية التأثير المعرفي والفكري والروحي على المتلقي طالباً وباحثاً وأستاذاً، ونقترح هنا العمل على موضعة القضايا الدنيوية من

⁵ غدنز، أنطوني / علم الاجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 53.

القضايا الأخروية على نحو التفصيل وباللغة المعاصرة التي تحيط بالطروحات العلمية المتداولة تكون مرجعية تحرس الرؤية الكونية الواقعية وتضع الدنيا والآخرة في رؤية تكاملية توحيدية، وبعد ذلك يمكن إعادة تشكيل عناوين الاختصاصات العلمية وموضوعاتها بما يسمح للرؤية الواقعية أن تأخذ مكانها الطبيعي في المنهاج التعليمي، ويمكن بموازاة ذلك رسم منهج أخلاقي وتربوي للفرد يقف حائلًا دون سيطرة المنظور الدنيوي المبتسر، وأخيرًا تحديد الغاية الأخروية من ذات الاشتغالات المختلفة بالمساحة الدنيوية فكريًا وعمليًا.

أولى النص المقدس اهتمامًا كبيرًا بمسألة التوجه، وصرف الجهد، وكيفية إدارته بين المساحة الدنيوية والأخروية، ففي الآية السابعة والسبعين من سورة القصص تأكيد على ضرورة وحدة الغاية الأخروية في كل المساعي والمسارات التي يسلكها الفرد {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۗ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، وفي سورة النساء الآية الرابعة والتسعين ذم للتوجه الاختزالي والمتحيز إلى الدنيا {تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وفي سورة الكهف في آيتها الثامنة والعشرين دعوة للإنصراف القلبي والروحي عن الدنيا {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وتأتي الآية المائتين من سورة البقرة في غاية الوضوح في لفت النظر إلى الإنحراف المتحيز إلى الدنيا رغم وجود الإيمان {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ} فهنا الإنسان يدعوا ربه لكي يزيد من مكاسبه الدنيوية فهو إنسان يؤمن بالله وبقدرته ويخاطبه ويدعوه لكنه منصرف الهم إلى الدنيا بشكل حصري، ونختم الإشارة إلى النصوص القرآنية بالآية التاسعة من المنافقون التي تعظنا بضرورة عدم الإنغماس بفكرنا وسلوكنا في أمور الدنيا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۗ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}. يمكن الخروج ببحوث قرآنية تفصيلية ومتكاملة في ما يخص ثنائية الدنيا والآخرة وكذلك من نصوص أهل العصمة عليهم السلام، إلا أن ما أورد هنا ليس إلا فتحًا للباب للاهتمام والبحث في سياق توضيح معيارية هذه الثنائية والتوازن في النظر والعمل بين الدنيا والآخرة.

تجدد الإشارة إلى أن الكثير من العلماء الدينيين قد اشتغلو على قضية الزهد الفردي والاجتماعي وأكدوا عليها، كما لفت آخرون إلى التوازن في هذه الثنائية بين الدنيا والآخرة، وهنا نورد إلفاتة للإمام الخميني في كتابه الأربعون حديثًا حيث يقول أن "هذه النشأة النازلة الدنيوية وإن كانت ناقصة بذاتها وإنما آخر مراتب الوجود، ولكن لما كانت مهد تربية النفوس القدسية، ودار تحصيل المقامات العالية، ومزرعة الآخرة، فإنها من أحسن مشاهد الوجود وأعز النشآت، وهي المغنم الأفضل عند الأولياء وأهل سلوك الآخرة. ولولا هذه الأمور الملكية والتغييرات والحركات الجوهرية، الطبيعية

والإرادية، ولولا أن يسלט الله تعالى على هذه النشأة التبدلات والتصرّيات، لما وصل أحد من ذوي النفوس الناقصة إلى حد كماله الموعود ودار قراره وثباته، ولحصل النقص الكلي في الملك والملكوت⁶.

2- جسد / روح

انقطعت حركة المعرفة الغربية عن النص الديني وما يقدمه من إجابات على الأسئلة الأساسية في الحياة الإنسانية، تلك الأسئلة التي تطرح بشكل فطري وعفوي في الذهن البشري، وجرى الاشتغال على دين جديد يستند إلى ما تقدر عليه الملاحظة الظاهرية كمصدر للمعرفة، ولا يملك الوسيلة لمعرفة حقيقة الإنسان، وجرى الاكتفاء بهذا القدر بناءً على ضرورات الصراع الجذري والتطرف في العداء مع الكنيسة بحيث أدى التدافع التاريخي التدريجي بالتنويريين إلى رفض كل ما يعود إلى النص الكنسي كمرجعية، ويشرح جوناثان اسرايل بدقة حركة الصراع هذه ويوضح التدرج في التطرف من الموقف تجاه الدين والعوامل السياسية والفكرية التي دفعت إلى الاستقطاب الحاد بين المؤسسة الدينية والنخب المناوئة لها، فلم يقرر أعداء الكنيسة وخصومها من البداية رفض كل المنظومة الفكرية الدينية بل كان لديهم ملاحظات على بعض المقولات ولكن رد فعل الاكليروس الحاد دفع بالتدرج إلى هذا العداء المستحكم، ومن هذا الموقف الحاسم بدأ تشكل نظرة اختزالية للوجود الإنساني تسكن إلى الظاهر وتركن إليه وترفض الحقيقة الروحية المعنوية وتنكرها إما عملياً وإما مباشرةً، وأخذ الجسد مكانة مقدسة في الثقافة والسلوك الغربيين كما احتل السلوك الظاهري وتأمين الحاجات المعيشية الدنيوية المختلفة المساحة الأوسع في مسارات البحث والتنظير.

المتلقي المسلم المتدين والمؤمن الذي يستفيد من النتاج الفكري الغربي قد لا يلتفت إلى أن هذه النتاجات وباهتمامها بالقضايا المختلفة، والمتغيرة، تغيب الإنسان عن وجود روحه الثابتة، الثابتة بارتباطها بالمطلق البسيط، فيهمل الجوانب التي أهملها الباحث الغربي ذي العقلية الاختزالية حينما يترك هذا النص المستورد يشكل منظوره للحياة الفردية والاجتماعية، فالانشغال الذهني بالقضايا الظاهرية الدنيوية، وانصباب التركيز على الحاجات الجسدية والنفسانية الذاتية والمتطلبات الدنيوية المعاشية، والظروف المتأتية من الصراع على تأمين هذه الحاجات، والإغفال الكلي لموقع الحاجات الفطرية والروحية في سياق النص والبحث والموضوعات، كل ذلك يختصر الوجود الإنساني ويقصره على الجانب الظاهري والجسدي، ويغيب الانشغال والتوجه والاتفات إلى الحقيقة الفطرية والروحية الثابتة والأصلية المتناقضة مع الخصائص البنيوية للقضايا الظاهرية الدنيوية المشبعة بالاختلاف والتغير والتشابك والاضطراب الفوضى، ويشير أنطوني غدنز، من وجهة نظره، إلى هذه الحالة التي اعترت المجتمعات الغربية ولا تزال "إن الأخلاق التقليدية التي كان ينطوي عليها الدين والتي كانت تقوم بمهمة الضبط وتقديم المعايير سرعان ما تبدأ

⁶ الحيني، روح الله / الأربعون حديثاً / الحديث السادس.

بالتفكك مع البدء بالتنمية الاجتماعية الحديثة، مما يدفع أعدادًا كبيرة من الأفراد في المجتمعات الحديثة إلى الإحساس بأن حياتهم اليومية لا معنى لها ولا دلالة⁷.

حياة الإنسان المؤمن بالله حياة مطمئنة وزاخرة بالروح المعنوية وتنطوي على استقرار عقلي وروحي بغض النظر عن الظروف والمتغيرات، وتقدم لنا حادثة كربلاء النموذج الأرقى لذلك، لكن إذا أصبحت الحياة الظاهرية هي كل ما يفكر به ويشغل عقله وقلبه وأحاسيسه فسيقع في حالة من الإضطراب والفوضى الباطنية، وستغيب عنه الحياة الحقيقية التي تنبع من صرف الإهتمام نحو العالم الروحاني، الذي هو حقيقة الإنسان وأصل وجوده كما تبين لنا الآيات الثامنة والتاسعة والعشرون من سورة الحجر { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } فالنفخة الإلهية الروحية هي حياة هذا الصلصال والطين، ويوضح الإمام الخميني بعض التفصيل هذه الثنائية بقوله "اعلم أن مقام النفس الأول ومنزلها الأدنى والأسفل، هو منزل الملك والظاهر وعالمهما. وفي هذا المقام تتألق الأشعة والأنوار الغيبية في هذا الجسد المادي والهيكلي الظاهري، وتمنحه الحياة العرضية، وتجهز فيه الجيوش، فتكون ساحة معركة النفس وجهادها نفس هذا الجسد، وجنودها هي قواها الظاهرية التي وجدت في الأقاليم الملكية السبعة وهي: (الأذن والعين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل)"⁸.

أما النص الذي جاء به "الدين الجديد" كما يقول أوغست كونت فقد قدم مقاربات مغايرة وبعيدة كل البعد، ومن آثارها أنها باهتمامها بقضايا المعيشة الحياتية الدنيا تغفل الإنسان عن وجوده الشفاف الذي يدرك نفسه بنفسه حضورياً فقد أدخلت البشرية في مسرح عبثي شديد الاضطراب، وهذا مصداق قول الإمام الصادق عليه السلام "مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتْ أَمْرَهُ وَلَمْ يَنْلِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ"⁹، ولذلك تنتشر الأمراض الروحية ويشيع استعمال الأدوية العصبية والمهدئات والأقراص المنومة¹⁰، حيث سلبت منظومة الدين المادي المبتدع راحة الروح وقدمت راحة الجسد، وإن العودة إلى نصوص هذا الدين كمرجعية للفكر والعمل له آثار نسبية على الإنسان المؤمن، وإن كانت لن تصل إلى مستوى التأثير السلبي الذي غرقت فيه الشعوب التي تخلت عن روحها، إلا أنها تحجب الإنسان عن الإهتمام بالحياة الحقيقية وتجعل منه هجيناً منقسماً إذا لم يلتفت إلى المنطق الاختزالي الذي تمليه، حيث أن محور الهم الفكري والعملية للمتخصص في القضايا الدنيوية حول

⁷ غدنز، أطلوني / علم الإجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 65.

⁸ الخميني، روح الله / الأربعون حديثاً / الحديث الأول.

⁹ أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حب الدنيا، ح 15.

¹⁰ نقل إلى طبيب أعصاب لبناني يعمل في فرنسا احصائية تفيد بأن ستمائة من الراشدين هناك يتناولون المهدئات ونسبة أكبر من ذلك تتناول الأقراص المنومة.

القضايا الظاهرية، وتسخير العقل لقراءة وتحليل الساحة الحياتية، وإهمال البعد الروحي والمعنوي الذاتي والباطني، والذي يتحول إلى جدلية تبدأ من خلال توجيه الذهن، ثم تنظيم الوقت، ثم توزيع الجهد، وتحديد الانشغال الرئيسي على المستوى الفكري، كل ذلك يجعل من الروح قضية غير ذات أهمية، ما يستبطن غيابها وعدم وجودها من الناحية العملية والحضورية، ويغلي مفاعيلها وتأثيرها في الفكر والعمل، بدءاً من إلغاء مفاعيلها في النظر الفكري الذي يمكن أن يسوق إلى غيابها النسبي المتفاوت في السلوك، وتنامي ذلك الغياب مع تقدم الزمن. خصوصاً إذا كانت تلك العلوم والنصوص هي التي تملي نمط الحياة أو كفاءات العمل الاجتماعي وغاياته فتترك آثاراً روحية وسلوكية على الفرد والمجتمع الذي يتم توجيهه وإدارته من خلال النظريات الاختزالية، فهي دين كامل الأوصاف فيه الرؤية الكونية كما فيه التشريع والفقهاء التفصيلي، كما نرى في العلوم الاقتصادية أو علوم النفس والموارد البشرية على تنوع فروعها ومجالاتها ونظرياتها.

حل أو تذليل هذا الإشكال المعرفي والتخفيف من مؤثراته الروحية والفكرية والسلوكية يحتاج إلى إعادة الاعتبار لما قدمه الوحي على صعيد علاقة الجسد بالروح وبالتالي علاقة الأصل الحي بالبعد المادي الترابي من المنظار التكويني والتشريعي، والاشتغال على استنباط العلة والحكمة من الوجود الظاهري وخصائصه وتأثيره على التطور الروحاني ومعرفة الشروط اللازمة لتحويل الاهتمام بالبعد الظاهري للفرد والمجتمع سبيلاً إلى تطور الروح وحيويتها ونموها، ومن جانب آخر دراسة الإشكال الروحاني في المجتمعات المادية التي خضعت للفكر المادي المتضمن في العلوم الإنسانية وتشريح الأوبئة النفسية والاجتماعية المتأتية من هذا العقل الاختزالي من خلال الأرقام والشواهد المباشرة لكي يتضح الناتج الحضاري النهائي لهذا العقل.

3- الإنسان / الله

مضافاً إلى الصراعات السياسية التي عززت التطرف تجاه الكنيسة في أوروبا كان ثمة متغيرات اجتماعية ساهمت في ابتعاد الجمهور العام عن الدين والارتباط بالمؤسسة الدينية ما سهل تقبل العامة للفكر والثقافة الاختزالية التي مهدت للعلوم الإنسانية المادية، ويصف عزمي بشاراً جانباً من هذه المتغيرات الكبرى حيث "انتشرت كما يبدو في منتصف القرن التاسع عشر حالة من عدم المبالاة الدينية في أوساط العمال والفقراء مع الهجرة من الريف إلى المدينة، ونشوء أحزمة الفقر حول المدن وأحياء الطبقة العاملة، ولا سيما في ممارسة الفروض الدينية. ولم تتمكن الكنيسة من متابعة التنقلات والحركات أو الانتقالات السكانية الكبرى مع نشوء الصناعة"¹¹، وعبر نيتشه لاحقاً عن الذروة في اللامبالاة وإقصاء

¹¹ بشار، عزمي / الدين والعلمانية في سياق تاريخي / المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات / ج 1 / ص 693.

المتعالي المطلق عن الفكر والحياة في مقولته المعروفة "الله قد مات"¹² ليقدم البديل في الإنسان شبه المطلق ونظرية السوبرمان، التي شرعت للتحربة النازية لاحقاً، فكان لهذه الطروحات المتطرفة مكاناً في العقول والقلوب بعد أن اكتسحت الحياة المادية ومساعي الإنسان للسيطرة على الكون واجتمع كل البعد الروحي المتعالي، وأنزلت الإنسان المتفوق في منزلة الإله المتحكم مستفيداً من سطوة المعرفة، وهذا ما أدخل العالم المادي في حروب راح ضحيتها عشرات الملايين.

النظريات والعلوم الإنسانية المختلفة أنتجت في ظل هذه المناخات والظروف والثقافة العامة التي تمحور همها على سد الفراغ الذي تركته المؤسسة الدينية بعد إقصائها، فنشأ تطرف فكري ردّاً على التطرف الديني، والمقولات التي أفرزها هذا التطرف كان من أهم خصائصها أنها تنظر إلى الإنسان على أنه محور الوجود وبالتالي تنكر فطرة التوجه إلى الله، حيث تمحور اهتمامها حول الإنسان فرداً ومجتمعاً، على اعتبار أنه محور الوجود، وينصب كل سياق التفكير والبحث في الاهتمام بالإنسان، وكيفية تحسين ظروف حياته الدنيوية، وبذلك يتم إغفال الفطرة التي تدرك أن الله هو المحور وهو الموجود بذاته، وتعطي للإنسان الفرد استقلالاً بحيث يقع على عاتقه تحمل مسؤولية وجوده وتحديد طبيعة هذا الوجود وفهمه، كل بحسب تجربته وما يصل إليه فكره. أما في المنظار الإسلامي فينبغي أن يتمحور اهتمام الإنسان بنفسه فرداً ومجتمعاً ولكن ضمن رؤية واقعية يكون الله هو المحور فيها من حيث الوجود والغاية والتشريع.

اعتبرت الثقافة العامة الأوروبية في عصر الصراع مع الكنيسة أن الله يقف في مقابل الإنسان، يلغيه ويكتسح أبعاده المختلفة، لقد وضع الدين في المواجهة المباشرة مع الفرد الأوروبي، وقد كان لهذا الصراع المتطرف أن ينتج شخصيات مثل نيتشه، ويقول باتريك ماسترسون موضعاً هذه النقطة "إنّ الاحاد في عصرنا، بتعبيره النظري الفلسفي، يتألف بصورة رئيسية من تأكيد استحالة تواجد الموجود المحدود والمطلق معاً. يُعتبر أنّ إثبات كون الله موجوداً مطلقاً يستلزم بالضرورة تخفيض قيمة الموجود المحدود، وبالأخص تجريد الانسان من الانسانية"¹³، وفي هذا المناخ الفكري جاءت النظريات والأفكار في العلوم الإنسانية وهي تسعى لتحويل الإنسان إلى إله من خلال المعرفة بكل تفاصيل الوجود والسعي للسيطرة عليه واعتبار ذلك ممكناً. تم استبدال سلطة الكنيسة بسلطة عملاية تتوسل الأدوات والقدرة، حيث يقدم النص المعرفي في العلوم الإنسانية مقارنة سلطوية للتحكم بالإنسان الآخر وتوجيهه وتشكيل الظروف والبيئة المحيطة به لخدمة غايات الإنسان المستكبر، أو المتحكم، أو القائم مقام السلطة في المجتمع الدولي أو المحلي، وتعتبر أن السيطرة أمر نسبي لكنه ممكن، فتشبع الذهن بمنهجية

¹² Nietzsche, Friedrich / The Gay Science / Cambridge University Press / 2001 / p 108.

¹³ Masterson, Patrick / Atheism and Alienation / Penguin Books / 1973 / p

تفكير توجهه نحو العمل لتحقيق تلك السيطرة كهدف بحد ذاتها، وهي بذلك تقدم الخلفية المناسبة لتعميق نظرة استقلال الإنسان ومحوريته في الكون. الإنسان يحق له أن يمارس السلطة ولكن ليس بشكل مستقل وليس كغاية بحد ذاتها وليس من خلال القوة بل من خلال الشريعة والرحمة، وليس لغاية تحول الإنسان المقتدر إلى موقع المحورية الكونية والقطبية الوجودية، وهذا ما تشير إليه الآية الثامنة والسبعين من سورة القصص التي توضح حالة انحراف قارون الفرعون الاقتصادي "قال إنما أوتيته على علم عندي" ردًا على نصيحة المؤمنين له بابتغاء الدار الآخرة فيما يمتلك من الدنيا، لكنه اعتبر أن القدرة والملكية والسلطة التي يمتازها ناشئة من العلم والمعرفة الذاتية، فأنكر القدرة والقيومية الإلهية. يشير الوحي الإلهي إلى التدخل في الجزئيات والتصرف في العقول والأفهام في الآية السادسة والسبعين من سورة يوسف {فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} ففي الشؤون التفصيلية ثمة ظهور للقدرة الإلهية، أو في الحديث عن أم موسى في الآية العاشرة من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فالربط الإلهي منعها من البوح والكلام، وهناك عدد كبير جدًا من الآيات الواضحة والتي تفتح الباب واسعًا للحديث في هذا الباب.

نجد هذا الفصل الحاد والتام بين الوجود الإنساني والإلهي في نظريات علم النفس، وعلم الاجتماع، ونظريات السلطة والدبلوماسية، ومجالات الإعلام، والإقناع، والتأثير، والحرب النفسية، والتسويق، والتوجيه الإداري كأمثلة، ويمكن العمل على تخفيف حدة هذا الفصل وكبح تأثير تطرف الفكر الاختزالي الكامن خلفه من خلال مسارات متفاوتة، منها تقديم رؤية للعلوم وموضوعاتها تحدد موقعها من المعرفة الروحية والإسلامية، وكذلك نحتاج إلى ثقافة كافية حول نطاق الوجود الإنساني في مقابل الوجود الإلهي، مضافًا إلى فهم فلسفة وغاية إعطاء الإنسان القدرة والمعرفة بالإنسان الآخر، وتضمنين هذه المسائل إلى جانب مسألة فلسفة الخلافة الإلهية في المنهاج العلمي الفردي أو حتى الأكاديمي.

عالج العلماء الإسلاميون هذه القضية من زوايا متعددة فلسفية أو كلامية أو أخلاقية، وقد أشاروا في المستوى السلوكي إلى مراتب الاتصال الإنساني بالمطلق تحت عناوين مختلفة منها مفهوم التوكل والاعتماد على القدرة الإلهية، الذي يرتقي من مستوى الاعتقاد العقلي إلى اليقين القلبي، ونستفيد هنا من كلام للإمام الخميني كذلك للإضاءة على وجهة نظر ترى في هذه الثنائية التماسك والترابط بشدة وعمق بعكس ما يتوهمه العقل الاختزالي، فيقول في شرح حديث التوكل: "الموحدون عمومًا يعرفون أن الحق تعالى هو خالق مبادئ الأمور، وكيّات الجواهر، وعناصر الأشياء، ويرون بأن تصرفه محدود، ولا يقولون بإحاطته بالربوبية. فهؤلاء تراهم تارة يقولون: مقدر الأمور حق؟ وهو المتصرف في كل شيء،

فما في كائن يكون إلا بإرادته المقدسة. ولكن هم ليسوا أصحاب هذا المقام، لا علمًا، ولا إيمانًا، ولا شهودًا، ولا وجدانًا. إن هذا الفريق من الناس والظاهر أننا من هم ليس لهم علم كامل ربوبية الله بل يكون توحيدهم ناقصًا، حيث حجبت عنهم ربوبية الحق وسلطنته لعلل وأسباب ظاهرة، وليس لهم مقام التوكل وهو ما يدور كلامنا عليه إلا لفظًا وادعاءً. لهذا، فإنهم في الأمور الدنيوية، لا يعتمدون على الحق سبحانه، بأي شكل من الأشكال، ولا يتشبثون إلا بالأسباب الظاهرية والمؤثرات الكونية. وإذا ما اتفق أحيانًا أن توجهوا إلى الحق تعالى وطلبوا منه حاجة، أو رجوا منه رجاء، فذلك من باب التقليد، أو من باب الاحتياط، ل أنه لا يرون في ذلك ضررًا عليهم، بل ربما يحتملون فيه الفائدة. وفي هذه الحال توجد رائحة التوكل. ولكنهم إذا رأوا الأسباب الظاهرة ملائمة ومطابقة لأهوائهم، غفلوا كليًا عن الله تعالى وعن تصرفه للأمور. إن المقولة القائلة بأن التوكل لا يتنافى مع العمل والتكسب، صحيحة، بل هي مطابقة للبرهان وللنقل، ولكن الاحتجاب عن ربوبية الحق وتصريفه للأمور واعتبار الأسباب مستقلة، يتنافى والتوكل¹⁴، واللافت هنا أن الإنسان المسلم المتدين قد يقع في إشكالية الانفصال أو الانعزال عن القدرة الإلهية، وغاية ما نرمي إليه هنا هو الإشارة إلى إمكانيات التأثير السلبي الكامنة في تراث الفكر الاختزالي، الذي قد يمنع الفرد من الخروج من هذه الشبهة والعودة إلى النظرة الواقعية. الإمام يشير إلى أغلب الموحدين لا يلتفتون إلى هذه المسألة، وهذا ما يجعل تأثير الفكر الاختزالي أشد نظرًا لعدم وجود ثقافة الإرتباط بالله عمليًا بين كثير من الموحدين وفي الثقافة العامة للمجتمع الإسلامي، وكذلك يلقي بالمسؤولية بشكل أشد على من يتطلع إلى العمل الاجتماعي من خلال اكتساب المعارف الإنسانية على مقاعد أهل الاختزال، لأنه سيتحمل مسؤولية ذاته ومسؤولية الآخرين كذلك.

4- البقاء / الفناء

يطرح ماسترسون السؤال التالي: ما الذي يسليخ الإنسان من ذاته، هل هو الاعتراف بوجود الله في التاريخ وفي وعي الإنسان، أو طمسه من التاريخ وقمعه في الوعي؟ وقد أجابت السرديات الأنسية بالتمسك بالإحتمال الأول، فالمشكلة دومًا تكمن في الإثنية والقطيعة بين الله والإنسان، فيما يقدم لنا الوحي صورة عن الوشيحة واللحمة التي تشكل هذه العلاقة بين الله وروح الإنسان التي هي نفخة منه سبحانه وتعالى، وتحدث العرفاء السالكون والعباد الزهاد عن فناء الإنسان في الله ورجعته إليه إلى أصله ومنشئه كمقام رفيع يناله الإنسان، وتحقق بذلك الطمأنينة الوجودية بعد انكشاف الحجب المادية والتعلقات الدنيوية.

النظرة الاختزالية قاربت هذه الثنائية من ثلاثة زوايا، الأولى هي البقاء الدنيوي المؤقت، والأخرى محدودية حياة الإنسان، وأخيرًا البقاء للإنسان في مقابل الغياب للمطلق، ويقارب هذه النظرة الكاتب

¹⁴ الحيني، روح الله / الأربعون حديثًا / الحديث الثالث عشر.

ستيفن لوبيير في مقدمة كتابه عن فلسفة الموت، مخاطبًا القارئ بشكل مباشر وملقيًا بين يديه أزمته الوجودية الفردية: "افترض أنك في لحظة ما ستتوقف عن الوجود نهائيًا، سيكون فارغًا من المعنى بالنسبة لك، أنت الآني الذي يقرأ هذه الكلمات، القيام بتحضير خطط لمستقبلك.. عندما تنظر عادةً إلى حياتك القادمة، تتخيل نفسك حاملًا للخطط التي تملكها للمستقبل.. هذا ما يدفعك إلى التحرك المباشر، لاقتطاع قسم من يومك المزدهم للقيام بأعمال تجعل الأمور أفضل بالنسبة لك في المستقبل.. الانعدام والتوقف عن كونك موجودًا سيأخذ كل هذا التخطيط والجهد إلى النهاية، لن يكون ثمة شيء في الحياة للتطلع نحوه"¹⁵، يحكي الكاتب هنا وضع المتلقي الغربي المشبع بالثقافة المادية، ويحاول إيقاظه للتفكير فيما أوصلته إليه الاتجاهات الانفعالية المتطرفة في التعامل مع النص الديني.

دفعت مصادر ومراجع الدين الاختزالي بكل قوة نحو الاهتمام بالشؤون الحياتية الآنية للفرد وأغفلت كليًا مستقبله الوجودي، وارتكزت على التشبث بالوجود الآني المباشر، ما أحدث خللاً في توازن النظرة إلى الزمن. في الزاوية الأولى كانت هذه الطروحات والآراء تنظر إلى الإنسان بشكل لا مباشر على أنه باقٍ وبشكل موهوم عبر اعطاء الأولوية للزمن المتاح في الحياة فوق الأرض، وتوضح الآية الثالثة من سورة الهمزة هذا الانحراف الموهوم بشكل مقتضب {حَسَبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} وكذلك الآية الرابعة والثلاثون من سورة الأنبياء {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} في استنكار لوهم البقاء الذي يقع فيه كثير من أتباع الثقافة المادية، وتشير الآية العشرون من سورة الأعراف إلى أن من أول وسوسات الشيطان لآدم وزوجه كانت قضية الخلد والبقاء لما لها من قيمة في النفس البشرية {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}.

وبالنسبة لنا نحن المؤمنين بأن الحياة الحقيقية تبدأ بعد الموت والفناء عن هذه الدنيا، سواءً بموت الجسد أو موت النفس وحياة القلب، كما تشير الآية الرابعة والستين من سورة العنكبوت {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} فإن تركيز المعارف المادية في القضايا الإنسانية على المساحة الحياتية المعاشية بشكل حصري، يذهب بفكرنا إلى الابتعاد عن الإلتفات إلى حقيقة الحياة ويمكن أن يدفعنا هذا التركيز اللامتوازن إلى التصرف على أساس "كأنك تعيش أبدًا" دون السؤال عن الآخرة وإهمال العمل على أساس "أنك تموت غدًا"، والمشكلة هنا لا تتعلق بالاهتمام بالقضايا الحياتية بقدر ما تتعلق بالثقافة التي توجه الفكر ومعايير التحليل واتخاذ القرار والتدريب البعيد الأمد على هذا الأساس، بحيث يصبح الاتجاه الفكري والعادات الذهنية ومحتويات الذاكرة كلها موجهة نحو الحياة الدنيوية وكأنها حياة أبدية ينبغي الإهتمام بها بجد ذاتها وبشكل حصري أو بشكل يغلب سائر الاهتمامات.

¹⁵ Luper, Steven / The Philosophy of Death / Cambridge University Press / 2009 / p 13.

من زاوية أخرى وقع العقل الاحتزالي في معضلة لم يعرف الطريق إلى حلها، وقد أشار إليها ستيفن لوبر، فمنتجات هذا العقل التي تنظر إلى فناء الإنسان بشكل لا مباشر على أنه نهايته قد أخذت الإنسان المتأثر بها إلى متاهة لا مخرج منها، ودفعته إلى النظرة العبثية والفوضى في بعض الأحيان، أو العمل لاحتياز كل ما أمكنه في هذه الفرصة الزمنية المتاحة التي هي عمره المتوقع، كما تعرض الآية الرابعة والعشرون من سورة الجاثية { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }.

فمن القضايا المشهورة في نقد الفكر المادي هو عجزه عن الإجابة على سؤال ما بعد الموت، وبذلك يناقض الفطرة التي تطلب البقاء الأبدي، ويجعل نطاق التفكير والطموح والآمال محصورة في نطاق زمني محدود، ما يجعل الذهن يتوجه نحو تحصيل الغايات والمطامح في هذا النطاق مهما كان الثمن، وذلك يؤثر تأثيراً بالغاً في المنظومة التربوية أيضاً والتي سنتناولها لاحقاً.

في المستوى الثالث وانطلاقاً من التشبث بالحياة الآنية والتمسك بالذاتيات المادية المباشرة والأناية الفردانية التي تشكل محور الثقافة الغربية، فإن هذه الطروحات الأنسية تسعى إلى بقاء الإنسان في حين أن غايته الفناء في الله. يمكن لنا أن نتناول ثنائية البقاء والفناء من خلال هذا البعد كذلك الذي يتصل بالمسار العبادي المفضي إلى سر التكوين وأصل الحب في الوجود كما تفيد الآية الثانية والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا }، أو الآية السادسة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }. أما المعرفة المادية بالإنسان تهدف إلى تنمية قدراته والحفاظ على وجوده في هذه الفرصة الزمنية الضيقة لغاية الاستفادة منها بأقصى قدر ممكن، وبذلك ينمو الاهتمام بالذات والذاتية ويصبح محور التوجه والتفكير هي الأنا، وبذلك تنقطع الطريق الرجوع إلى الله، والارتباط والفناء في وجوده الحقيقي، ومعرفة أن الوجود الإنساني محض تعلق.

الفكر الإسلامي يقدم أطروحة شاملة حول البقاء ولافناء في المراتب المتفاوتة في النظر، وهو يجيب على الأسئلة التي تحير البشرية مستنداً إلى الإخبار الغيبي والكشف المحمدي، لكن المستوى الرفيع الذي نظر منه العارفون إلى هذه الثنائية ظل محدود التداول في المؤسسة العلمية الدينية، مع استثناء التيارات الصوفية التي شرعت الباب على مصراعيه أمام التفسير الرمزي والسير المعرفي الشهودي، وقد أشار الإمام الخميني إلى أهمية الالتفات إلى هذه الزاوية وأكد على خطورة الالتباس الذي قد يقع فيه المؤمن المتدين بحيث ينكر مراتب في طريق الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وهذا يشمل في بعض الحالات إنكار مقام الفناء في الله وذوبان الموجودات الممكنة في الوجود الواجب، وكما يعبر في بعض كلماته "لقد جاء الأنبياء لكي ندرك أننا لا شيء" وفي كتاب سر الصلاة يؤكد على خطورة هذا الإنكار للمقامات ويوضح علته النفسانية "صاحب كل مقام ونشأة إن لم يترجل من مركب العصبية والأناية ينكر غيره من

المراتب، ويرى غير الذي هو متحقق به من بقية المقامات باطلاً وحشواً. كما أن من لم يصل إلى المراتب والمقامات الإنسانية ولم يخرج من حجاب الأنانية ينكرها أيضاً ويحسب معارج أهل المعرفة ومدارجهم تافهة وهذا من أكبر عوائق السير إلى الله، وأعظم موانع الارتقاءات الروحية والمقامات الروحانية، وإن النفس الأمانة بواسطة حجبها لنفسها ولزخارف الدنيا تبقى في الحجاب الظلماني وتساعد الوساوس الشيطانية حتى تخلد إلى الأرض¹⁶. الإنسان المؤمن وبشكل بدئي يحتاج للسعي والكدح والمواجهة مع التعلقات والحجب للوصول إلى هذه المقامات وقد يقع في شبهة الإنكار، والاستغراق في المعارف ذات الإطار المادي الاختزالي هو حجاب غليظ وصلب يساهم في زيادة صعوبات الطريق.

نلاحظ التطرف واللاتوازن تجاه هذه الثنائية المركزية في حياتنا في صنوف كثيرة من الآراء المطروحة في العلوم الإنسانية وما يتفرع عنها من سبل لتوجيه الحياة الفردية والجماعية مثل الإطار الذي يطلع عليه عنوان التدريب على الحياة أو مثل إدارة الأعمال وحل المشكلات وما يتفرع عنها كثير، وكذلك المجالات النظرية مثل الإنترنتولوجيا والتربية.

المقاربة المتوازنة في هذا المجال تحتاج إلى تشخيص القيمة الحقيقية لهذه المعارف الحياتية من وجهة نظر الوحي، ومعرفة غايات الاشتغال بالأمور الدنيوية الحياتية من المنظار التربوي الأخلاقي والروحي، البحث عن التوظيفات والفوائد الأخروية من الاشتغال المعرفي في نطاق المسؤوليات الدنيوية، وتأسيس مفهوم الرجوع إلى الله في كل مراتبه ضمن المنهج الفردي والأكاديمي.

5- المادة / المجرد

شعار الاتجاه الفكري المعادي للكنيسة كان المادة، مقابل المجرد والغيبي والملكوتي الذي نظر إليه في الإطار الاجتماعي السياسي الغربي على أنه سبب الأزمة السياسية والحروب، فتم رفع شعار نقيض، على أمل أن يكون هذا النقض والتناقض سبباً للخروج من الاحتراب الأوروبي، الذي أطل من النافذة في حربين عالميتين لم يرى التاريخ لهما نظيراً، حربين قامتا بثقافة مادية بحتة.

الموقف الإسلامي في هذا المجال معروف وأشار السيد الطباطبائي في هذا السياق إلى طبيعة العلاقة بين طرفي هذه الثنائية في تفسيره المعروف بالميزان حيث يقول "قوله تعالى: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ} . و كذا الآية الثانية التي أوردها أعني قوله تعالى: أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها "إلخ"، مسوقة لبيان بقاء الحق و زهوق الباطل سواء كان على نحو التنازع كما في الحق والباطل الذين هما معا من سنخ الماديات و البقاء بينهما بنحو التنازع، أو لم يكن على نحو التنازع والمضادة كما في الحق و الباطل الذين هما بين الماديات والمعنويات فإن المعنى، ونعني به الموجود المجرد عن المادة، مقدم على المادة

¹⁶ الحيني، روح الله / سر الصلاة / دار التعارف / ص 22.

غير مغلوب في حال أصلا، فالتقدم والبقاء للمعنى على الصورة من غير تنازع، وكما في الحق والباطل الذين هما معا من سنخ المعنويات والمجردات، قد قال تعالى: { وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ } طه - 111، و قال تعالى: { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَائِمُونَ }، البقرة - 116، و قال تعالى: { وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ } النجم - 42، فهو تعالى، غالب على كل شيء، و هو الواحد القهار"17.

الإمام الخميني من ناحيته كان له إشارة كذلك إلى مراتب العلوم وموضوعاتها وقيمتها، ويؤكد على أولوية تلك المسارات المعرفية التي تعنى بتكامل ونضج البعد المجرد في الإنسان، ويعطي للعلوم الأخرى قيمة أدنى فأدنى: "العلوم التي تقوّي العالم الروحاني، والعقل المجرد وتربيتها فهي: العلم بالذات المقدس الحق جلّ وعلا، ومعرفة أوصافه الجمالية والجلالية، والعلم بالعوالم الغيبية المجردة مثل الملائكة وأصنافهم من أعلى مراتب الجبروت الأعلى والملكوت الأعلى إلى نهاية الملكوت السفلي والملائكة الأرضية وجنود الحق سبحانه. والعلم بالأنبياء والأولياء ومقاماتهم ومدارجهم، والعلم بالكتب المنزلية، وكيفية نزول الوحي، وتنزل الملائكة والروح. والعلم بنشأة الآخرة وكيفية عودة الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالم البرزخ والقيامة، وتفاصيل ذلك.. والعلوم التي تناط بها تربية الظاهر وترويضه، علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب المعاشرة وتدبير المنزل، وسياسة المدين ويتكفل بشرحها الأنبياء ثم الأولياء عليهم السلام ثم علماء الظاهر من الفقهاء والمحدثين. ولا بد من معرفة كل واحد من هذه المراتب الثلاث الإنسانية المذكورة مترابطة بدرجة، تنعكس آثار كل مرتبة على المرتبة الأخرى من دون فرق في ذلك بين الأمور الكمالية، أو الأمور القبيحة المعيبة"18.

وقد ناقش الشهيد مطهري في كتابه **الدوافع نحو المادية الصلة بين الاتجاه المادي والتطور العلمي**، واعتبر أن الاتجاه المادي موجود تاريخياً لدى العلماء وغير العلماء على حد سواء، ولا علاقة للتطور العلمي بنشأته، وإن كان هذا الأخير عنصراً مؤثراً في تعميم الثقافة المادية، فإن الارتباط الشرطي بينهما لا دليل عليه. ويلفت ماسترسون إلى أن الصدام بين بعض مفردات النص الديني المسيحي وبين بعض النظريات العلمية، قد أفضى إلى القطيعة مع العالم المجرد برتمته وأقصاه بشكل نهائي، واعتبر البعض هذا الإنجاز على حساب النص الكنسي ذريعة لصرف النظر عن كل ما هو غير مادي، ونورد كلام ماسترسون هنا لأهميته كشهادة لباحث غربي على هذه التحولات التاريخية "من المعترف به من خلال إلقاء نظرة دقيقة أنه من غير الممكن إظهار كون أي من الأوتاد العظام للمفهوم الكوني الجديد - كمنظرة مركزية الشمس أو قانون القصور الذاتي أو قانون الجاذبية- وكأنها غير متوافقة من حيث المبدأ مع إثبات وجود الله. بالرغم من ذلك، فإن الأفكار التي قامت هذه النظريات باستبدالها كانت مرتبطة بشكل وثيق

17 الطباطبائي، محمد حسين / تفسير الميزان / الجزء 2 / ص 174.
18 الخميني، روح الله / الأربعون حديثاً / الحديث الرابع والعشرون.

بإثبات وجود الله وبمجموعة من المواضيع الإلهية المتنوعة، فبدا لعديد من الناس أن سقوط هذه الأفكار يتجه إلى تقويض إثبات وجود الله بدلاً من أن تسهل هذه النظريات إحداث فهمٍ أكثر أصالةً ونقاءً عن الطبيعة الإلهية. على نحو أدق، فإن المنهجية الإلحادية للنظرة العلمية المعاصرة قد أقصت ببساطة السؤال حول وجود الله ولكنها قد أحدثت أيضاً إطاراً ذهنياً يميل نحو تعميم اللامبالاة المنهجية تجاه ما هو إلهي وتحويله إلى النزعة الإنسانية العلمية المطلقة¹⁹. نحن وفي إطار الرؤية المعيارية التي نركن إليها في هذه الورقات لا نريد الإنجرار نحو جدل كلامي مع الفلسفة المادية، فقد قامت استدالات علمية وفلسفية إسلامية كثيرة بنقض الأصول المعرفية والكلامية لتلك الفلسفة، ونحن لسنا بصدد إثبات انحرافها ووهنها، وإنما نريد التركيز على تسرب تلك الفلسفة في اللغة غير المباشرة للعلوم الإنسانية المختلفة، ويمكن لمن يود الإطلاع بشكل تفصيلي العودة إلى الكتابات المختصة في هذا الجانب، وإشارة ماسترسون هنا تفيد في تأكيد حقيقة أن "العلم"، في التداول الغربي الأنواري، كان يمثل تياراً فكرياً تشكل في حمأة الصراع، اندفع نحو تشكيل رؤية مسبقة وشمولية تجاه الدين.

للوقوع على الموقف الغربي المباشر، نعود إلى موسوعة روتلج للفلسفة التي عرفت المادية كاتجاه فلسفي بالآتي: "مجموعة من النظريات المترابطة التي تعتبر أن كل العناصر والحركات تتألف من المادة، القوى المادية أو العمليات الفيزيائية. كل الأحداث والحقائق قابلة للتفسير، مباشرةً أو بشكل مبدئي، من خلال مفاهيم الجسد، الأشياء المادية أو التحولات والحركات الدينامية المادية"²⁰، وبالمقابل وفي تعريف القضايا المجردة يقول بوب هايل "السؤال الفلسفي المركزي حول القضايا المجردة هو: هل ثمة قضايا مجردة؟"²¹ ويعرض للآراء المختلفة في هذا المجال، وفي المجال الإنساني اعتبر الطبيب والفيلسوف جوليان دولامتري²² في كتابه "الإنسان الآلة" الصادر عام 1748 الوجود الإنساني جسمًا ميكانيكيًا يتحرك بقدرة ذاتية وفسر الحركة الفكرية على أسس عصبية مادية.

تحركت الأبحاث في العلوم الإنسانية الغربية إذن على خلفية مادية، وحاولت الإلتفاف على وجود العقل واللغة في بعض الأحيان ولم تنجح في الوصول إلى تفسيرات مقنعة، لكنها انضوت تحت شعار انكار المجردات، ونحن إذ نستعين بها في تكوين المعرفة عن الوجود الإنساني، سنلاحظ أنها بطبيعة الحال تصرف الإهتمام عن القضايا المجردة العقلية والروحية وبالتالي تضعف قدرة الإنسان على إدراكها والإيمان بها، فانشغال الفكر بالواقع الحياتي والمعاشي يستتبع إشباع المخيلة بالصور المادية، وتأطير الفضاء الفكري بحدود تعزله عن الإهتمام بالأبعاد المتنوعة للموجود الإنساني، كما تخلق نمطية

¹⁹ Masterson, Patrick / Atheism and Alienation / Penguin Books / 1973 / p

²⁰ Routledge Encyclopedia of Philosophy / Materialism.

²¹ Routledge Encyclopedia of Philosophy / Abstract objects.

²² Julien de la Mettrie / L'Homme Machine.

اشتغال الجانب المجرد من الإنسان أي العقل ومن ثم القلب بالجانب المادي المعاش منه، فيصبح المجرد مسخرًا للمادي، على النقيض تمامًا من الخطاب والتوجيه القرآني الذي أراد أن تكون الأولوية للحياة الأخروية بقيمة قصوى للبعد الروحي والمعنوي وقيمة دنيا للبعد المعاشي كما تشير آيات كثيرة ومنها الآية الثانية والثلاثين بعد المائة من سورة طه "لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى".

انسداد باب المعنويات الروحانية العميقة والأصلية أمام المفكر أو المثقف أو الباحث الغربي ذي النزعة المادية الشمولية، دفعه بقوة نحو إيجاد البديل، فكان الطريق إلى معرفة الذات هو العلوم الظاهرية، ففرغ فيها كبديل لطريق التكامل المعنوي، وأصبحت هي خشبة الخلاص من التيه المعرفي، ولذلك نحن نتعرض لإغراء أن تتحول هذه المعارف التي تقدم بديلاً معنويًا عن المعرفة الحقيقية بالإنسان فردًا ومجتمعًا إلى بديل يطغى على طريق التكامل الروحاني والسير الأخلاقي العبادي بالمعرفة المباشرة الظاهرية، ويغذي العقل مقابل تغذية القلب والروح، ويحصل من ذلك تغليب للمجرد العقلي على المجرد الروحي، فيحصل شعور وهمي بالاكتمال لناحية الحاجات المعنوية المجردة، كما يعبر ميغيل فارياس في بحث له بعنوان (سيكولوجيا الإلحاد): "يمكن للعلم أن يقوم بدور العكاز السيكولوجي لأن يقدم قيمة ميتافيزيقية مضافة"²³ ويتأتى من ذلك إهمال البحث في الجانب الروحي والفظري الحقيقي للتجرد، لذلك نلاحظ الإنكباب الكبير على الإنتاج الفكري والتلقي المعرفي للذين فتح أمامهم باب المعارف العقلية، وقد نقع في هذه الثغرة نتيجة الإستغراق في التلقي وكذلك البيئة الأكاديمية التي تجعل التداول الفكري محصورًا في النطاق الظاهراتي قسرًا.

بعض أهم الموارد والمجالات في العلوم الإنسانية التي تشكل حجابًا على القلب والروح عند الإستغراق والإستسلام لها كروية للحياة والوجود نرى نظريات علم النفس ونظريات التربية وميادين الإنتربولوجيا المختلفة، والتي نحتاج في معاشرتنا المعرفية الأكاديمية الطويلة مع نصوصها وكراريسها أن نلتفت إلى ضرورة معرفة الأصول والتطبيقات التي جاء بها الوحي والتي تتعلق بتشكيل ورعاية مراتب وجود الإنسان بأجمعها، ومن ناحية أخرى لا بد من رعاية أرواحنا وقلوبنا وتغذيتها بالقدر المتوازن مع الجرعات الثقيلة من الثقافة المادية التي تنظمها المؤسسة الأكاديمية لكي تبقى عين القلب قادرة على رؤية العالم المجرد فلا يغفل العقل عنها ولا يسمح للأطر الإختزالية أن تستبد به.

6- الظواهر / التجليات

البحث عن بديل للنص الديني وما قدمه من اجابات حول الإنسان ووجوده وغاية حياته قاد إلى اللجوء للمنهج المتبع في استقصاء المعرفة بشؤون الطبيعة والمادة، فبحسب المنظر الإختزالي أوغست كونت "كان

²³ Farias, Miguel / The Psychology of Atheism / In : Oxford Handbook of Atheism / 2016 / p 396.

ينبغي على علم الاجتماع أن يطبق المنهجيات العلمية الصارمة نفسها في دراسة المجتمع، كما هو الحال في الأساليب التي تنهجها الفيزياء والكيمياء في دراسة العالم الطبيعي²⁴ وكذلك تبعه الآخر اميل دركهايم الذي شارك كونت الرأي "بأن علينا دراسة الحياة الاجتماعية بروح موضوعية مثلما يفعل العلماء عند دراستهم للعالم الطبيعي، وكان المبدأ الأول الذي وضعه لعلم الاجتماع : فلندرس الحقائق والوقائع الاجتماعية باعتبارها أشياء"²⁵.

تم تشييء الإنسان في النهاية لمحاولة فهمه، وهذا ما ينعكس في النصوص التي تتبنى هذا الاتجاه الذي حدّد الإنسان في مرتبته الوجودية الدنيا كشيء من الأشياء، مقطوعاً عن أصله ومنشأ وجوده واستمراره، وحينما نستفيد من هذه النصوص في سياق تعليمي يفرض علينا تبني الأفكار والمقاربات الواردة فيها من خلال استخدامها في الفهم والتحليل والعمل فإن ذلك يؤثر في إدراكنا لأنفسنا وللآخرين، وتغيب عنا حقيقة وجودنا، فهي **تفصل الظواهر الإنسانية عن الرؤية التوحيدية للكون وحقائق الوجود**، فلا شك أن انغماس البحث في الظاهرة الإنسانية في بعدها الظاهري، وإهمال الحقيقة التوحيدية التي تقر بأن "لا مؤثر في الوجود إلا الله"، مؤسّسة على مقولة "لا جبر ولا تفويض"، فتتطرّق إلى "البلاء" على أنه مشكلة، وإلى "النعمة" على أنها "ريح"، وبذلك تعزل عاملاً رئيسياً ومتغيراً مركزياً في عملية التحليل وهو القرار الإلهي. هذا الانشغال ضمن هذه الحدود المادية يخلق إطاراً محدداً للنشاط الفكري، إطار يمنعه من الإلتفات إلى هذا العامل والمتغير الرئيسي ودوره في الظواهر والمتغيرات، وتجعل العقل ينظر إلى الكون على أنه ساحة مستقلة ومنفصلة عن الوجود الإلهي.

وكذلك ومن ناحية أخرى فإن هذه الكرايس لا تعتبر أن الظواهر الإنسانية تتأثر بالإذن الإلهي والإرادة والتأثير الإلهيين، فهي تعاني من انحياز إلى جانب التفويض المطلق للإنسان، وكف يد التأثير الإلهي عن الفرد والمجتمع والحياة، وإغفال وجود القدرة الواعية والهادية والمرشدة التي تؤثر في قرارات الأفراد والمجتمعات ومصائرهم ومساراتهم، هذا التطرف الأعمى يخلق نطاقاً فكرياً وشاكلة معنوية تشترق العقل والقلب، حيث ينعكس التصور النظري للظاهرة الإنسانية على التصور القلبي للذات، وتصبح النظرة للحياة الإنسانية نظرة سطحية ومادية، وتصبح حدود الفضاء الفكري محروسة حراسة مشددة تجاه إدراك ووعي الإرادة والتأثير الإلهيين.

نجد هذا الانحراف في الكثير من المقاربات الواردة في أدبيات العلوم الإنسانية الغربية سواءً في فلسفة التاريخ أو النظريات الاجتماعية مثل نظرية الحركة الاجتماعية أو نظرية الفوضى وما شابهها مما كثر وتعدد إلى ما لا نهاية من آراء وأطروحات، ولا بد لتفادي الإنسياق نحو الرؤية الإختزالية من

²⁴ غدنز، أطوني / علم الاجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 62.

²⁵ غدنز، أطوني / علم الاجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 63.

إدراك مدى محدودية القراءة الظاهرية للواقع من الناحية الإستيمولوجية حيث ترسم توقعات واحتمالات غير كاملة ومشوبة، فهم مدى عمق ومحورية مسألة الجبر والتفويض، فهم السنن الإجتماعية القرآنية، توضيح موقع السنن القرآنية من بعضها البعض، وتحليل إشكالية موضع وزمان انطباق هذه السنن وكيفية معرفة حصول شروط الانطباق، دمج هذه المكونات في المنهج التعليمي والبحثي في دراسة الظواهر، وهناك مجال واسع لإدخال عناصر متنوعة في هذا السياق لاستكمال الرؤية الظاهرية المجترأة.

أكد الوحي المقدس على وجود بعد خفي في الظواهر التي تحصل في المجتمع الإنساني فلا يبقى المرء في عزله الفردانية وفق هذه النظرة، كما توضح الآية السابقة عشرة من سورة الأنفال " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، وكذلك الآية الواحدة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين" وآيات كثيرة يزخر بها القرآن الكريم أكدت على ضرورة الالتفات إلى البعد الغيبي للظواهر الإجتماعية. ولالإمام الخميني إشارة لطيفة في هذا السياق مرت في أحد خطباته إبان انتصار الثورة الإسلامية المظفرة "نأمل أن يتحقق الوعد الإلهي بإعادة المنة بحق المستضعفين عن قريب، وأن تخرج يد الحق تعالى المقتدرة من أكمام الشعوب المظلومة، ويتحقق التحول الإلهي الذي وجد لدى الشعب الإيراني، لدى كافة الملل والنحل بإرادته تعالى"²⁶.

7- الكثرة / الوحدة

واحدية وأحدية الخالق وكثرة المخلوقات وتعدديتها قضية محورية في السير التكاملي للإنسان في طريق رجعته إلى أصله الروحي، فالحياة الواقعية المباشرة ودار الدنيا تشغله بكثرة حاجاتها وشؤونها وموضوعاتها وتقلباتها، فيما يمر طريق العودة إلى المبدأ بين تلك الكثرات والإنشغالات وينسل منها رغم وجوده بينها، لكن محورية التكامل المتعالي كهم مركزي لحياة المؤمن يسمح له بأن يضع كل انشغال وكل هم في سياق واحد أوحد، كما يقول أمير المؤمنين "قد تخلى عن الهموم إلا همًّا واحدًا انفراديًّا"²⁷، فيقصي ما يشغله عن هدفه الذي خلق لأجله ويقدم ما يخدم ذلك الهدف المقدس، الفرد والمجتمع يعبران الطريق من الإستغراق في الموجودات ومتطلباتها إلى التوازن والهدفية في رؤية كلية منسجمة، يكون فيها لكل طبقات المجتمع طريق تكامل وتقدم معرفي وروحاني متعال.

²⁶ صحيفة الإمام / الجزء 17 / ص 253. وللمزيد في هذا المجال راجع: جدلية المعرفة الزمنية والحضورية، ص 230.
²⁷ نهج البلاغة / الخطبة 87.

قدم الفلاسفة الإلهيون والعرفاء الروحانيون توضيحًا لكيفية تساكُن الأحادية الإلهية مع كثرة الممكنات، من خلال مراتب الوجود الواحد، فالشمس تبعث النور على مراتب بحسب القرب والبعد، والمخلوقات تتفاوت في مرتبتها وبعدها ابتداءً من الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله الأطهار وصولاً إلى الماديات الصماء البكماء، ولا شك بأن هذا المبحث العميق واللطيف مرجعه إلى الآيات والروايات عن أهل بيت العصمة سلام الله عليهم كما أشار الفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازي في كتابه الأسفار الأربعة "الثابت بذاته المثبت لغيره الموصوف بالأسماء الإلهية المنعوت بالنعوت الربانية المدعو بلسان الأنبياء والأولياء الهادي خلقه إلى ذاته أخبر بلسانهم أنه بهويته مع كل شيء لا بمداخلة ومزاولة²⁸ وبحقيقته غير كل شيء لا بمزايلة وإيجاده للاشياء اختفاؤه فيها مع إظهاره إياها وإعدامه لها في القيامة الكبرى ظهوره بوحدته وقهره إياها بإزالة تعيناتها وأسمائها وسماتها وجعلها متلاشية كما قال (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) و (كل شيء هالك إلا وجهه)"²⁹.

المدرسة المادية انصرفت كما أسلفنا إلى الإنشغال بالدنيا وعالم الكثرة إلى حد فاق عدد الإختصاصات العلمية الآلاف الثمانية، دون أن يكون ثمة رابط يجمعها في رؤية كلية، وفي كل اختصاص تكثر النظريات والآراء والمقاربات وزوايا النظر، وناقش الباحث الفرنسي المعاصر باساراب نيكولسكو هذه القضية بعمق، ناقداً الفكرة التي تقول بعدم وجود ضرورة لأي معيار كلي يحكم حركة التعرف والبحث، معتبراً ذلك من نتاج تراجع المعنويات في الزمن الحالي، "الروحانية كلمة فقدت قيمتها كلياً اليوم .. في فعل التواصل بيننا وبين الكون. ثمة فقر روحي هائل اليوم على كوكبنا، يعبر عن نفسه من خلال الخوف، العنف، الكراهية والدوغمائية.. بالنسبة للنسيبيين الراديكاليين، بعد موت الله، وموت الإنسان، وانتهاء الأيديولوجيات، ونهاية التاريخ (وربما، في الغد، موت العلم ونهاية الدين)، لم يعد ممكناً التواصل إلى رؤية كلية"³⁰، وتم حصر الحياة في زاوية مادية ضيقة ووحيدة في زمن الحداث وما بعدها فبرأيه أن "الإنسان الإقتصادي هو وليد الحداثة، يؤمن حصراً بما يراه، يشاهده، وقيسه. ومجاله الطبيعي هو الدنيوي، لغته تنتمي إلى مرتبة وحيدة من مراتب الواقع، يمكن الوصول إليها من خلال العقل التحليلي، العلوم الرقيقة والكثيفة، والتكنولوجيا والنظريات والأيديولوجيات والرياضيات والمعلوماتية"³¹، وفي طرحه للعلاج يقترح من لغة الفلسفة الإسلامية التي تضع الكثرة في ظل الوحدة، ولو من منظار منهجي ينسجم مع مقارنته "قناعتي العميقة هي أن تشكيلنا للعبير مناهجية هو ذو طابع توحيدي (بمعنى توحيد

²⁸ نهج البلاغة / الخطبة الأولى.

²⁹ الشيرازي، صدر الدين / الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة / الجزء الأول / ص 261.

³⁰ باساراب، نيكولسكو / العبر مناهجية كإطار منهجي لتجاوز جدال الدين والعلم / مجلة الحجّة / العدد 23 / صيف 2011 / ص 169.

³¹ باساراب، نيكولسكو / العبر مناهجية كإطار منهجي لتجاوز جدال الدين والعلم / مجلة الحجّة / العدد 23 / صيف 2011 / ص 171.

مختلف المقاربات العبر مناهجية)، وهو متنوع كذلك في الوقت عينه : تنطوي مقولة الوحدة في التنوع والتنوع من خلال الوحدة في مفهوم العبر مناهجية³².

يشكل هذا التوجه لدى كاتب ومفكر فرنسي معاصر، انتقل من علم الفيزياء إلى الهم الفلسفي مؤخرًا، جزءًا من انتفاضة فكرية محدودة النطاق تسعى للعثور على مخرج من الأزمة المادية، غير أنها لا تزال في إطار السؤال مع قليل من الإجابات، وأهم ما في هذا الحراك وعي المشكلة الإختزالية القائمة اليوم، وهنا تتلاقى مع كلام الإمام الخامنئي دام ظله في كثير من تعبيراته في هذا الشأن الحساس ومن ذلك قوله "حذرث فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية في الجامعات ونهت الجامعات والمسؤولين إلى أخطار هذه العلوم المسمومة ذاتيا. العلوم الإنسانية الدارحة اليوم فيها مضامين تتعارض ماهويا مع المسيرة الإسلامية والنظام الإسلامي، وترتكز إلى رؤية علمية أخرى، تطلق كلاما آخر، وتتابع هدفا آخر"³³.

هذه المعارف والطروحات التي تغرق الإنسان في عالم الكثرة والتغير وتضعف إمكانات العقل والتصور على رؤية الوحدة، فحين يغرق العقل في التفاصيل والجزئيات يتعد تدريجيًا عن الإهتمام بالنظرة الكلية المتعالية المسيطرة على كل التفاصيل والجزئيات، كما يصبح أسير اللحظات الزمنية المتغيرة ويصبح الزمان هو أحد حدود النطاق الفكري المادي، ويصعب مع تنامي الإهتمام بالأمر الديني والحياتية وتشكل منهجية التفكير الملازمة لحركة الذهن الإنتقال من عالم الكثرة المتغيرة إلى عالم الوحدة الثابتة والإلتفات إلى حضور المحرك غير المتحرك وتغيب الرؤية الشاملة لصالح التفصيل، ونقع في حالة من الإختزال المتطرف في النظرة إلى مرتبة واحدة من مراتب الوجود ويقع الإهمال في المرتبة العليا ويصبح إدراك المطلق غير المقيد أمرًا متناقضًا مع مساحة الانشغال الفكري الأوسع في المجال المقيد والمتشابك والمعقد.

لاحظنا هذه الإشكالية في أغلب المقاربات والنظريات في العلوم الإنسانية ذات الإتجاه المادي، ومن أبرز تجليات انكسار التوازن في هذه الثنائية نظرية التشابك، نظريات النمو والتربية، نظريات العلاقات العامة، ونظريات موازين القوى. في الطريق نحو إعادة التوازن نحتاج إلى معرفة موقع الكثرة والتغير من النظرة الكلية للوجود، معرفة موقع المطلق غير المقيد من الكثرات المتغيرة، معرفة مراتب الوجود وعلاقتها ببعضها البعض، معرفة الحكمة من الإشتغال الديني في سياق الهدف المعرفي التوحيدي.

قدر الإمام الخميني رضوان الله عليه الآثار المترتبة على هذا الخلل بدءًا من الإنحراف الأخلاقي وصولًا إلى الممارسات السلوكية ما يشير إلى أهمية الإلتفات إلى المخاطر الناجمة عن الركون إلى المعارف الإنسانية المادية والعقبات التي تضعها في طريق تكامل المؤمن : "أما الطائفة الثانية فهم لا يعرفون عن

³² باساراب، نيكولسكو / العبر مناهجية كإطار منهجي لتجاوز جدال الدين والعلم / مجلة الحجّة / العدد 23 / صيف 2011 / ص 152.

³³ من خطاب بتاريخ 21 / 10 / 2010.

الحق شيئاً، وإذا علموا شيئاً لكانت معرفتهم ناقصة وإيمانهم غير تام، وحيث أن انتباههم إلى الكثرات والأسباب الظاهرية قد أغفلهم عن مسبب الأسباب، فظلوا يسعون لكسب رضا المخلوق، وقد ينتهي بهم الأمر إلى شراء رضا المخلوق الضعيف جداً، بسخط وغضب الله سبحانه: بأن يعلنوا موافقتهم لمعصية العصاة، أو يتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوقت المناسب للأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، أو يفتوا بالباطل، أو يدعموا من ليس بأهل للتأييد أو يكذبوا من ليس من شأنه الدجل والكذب"³⁴.

8- النفس الفطرية

الإنسان الذي علم الملائكة الأسماء الإلهية والذي لديه القابلية لنيل مرتبة الخلافة الإلهية والتخلق بالأخلاق الربانية تم إنكاره وتحييده، وتحويله إلى موضوع للبحث والاختبار لأجل السيطرة عليه وتوجيهه بحسب مصالح المؤسسة المادية، وكل ذلك تحت شعار الموضوعية التي "عندما تتموضع كميّار أحادي للحقيقة، سيكون لها نتيجة حتمية واحدة : تحويل الذات إلى موضوع. موت الذات هو الثمن الذي ندفعه في موضوعية المعرفة. حيث أصبح الوجود الإنساني موضوعاً للإستغلال من قبل الإنسان الآخر، موضوعاً للإختبار من قبل الأيديولوجيات التي تدعي العلمية، موضوعاً للدراسات العلمية التي تتولى تشريح، وإعادة تشكيله والسيطرة عليه. الإنسان، الإله أصبح الإنسان، الموضوع، والنتيجة الوحيدة لهذا المسار هي التدمير الذاتي. المجزرتان العالميتان في القرن العشرين هي انعكاس لمسار التدمير الذاتي"³⁵.

المنهج الأداتي هذا يعمل في الوقت نفسه كوسيلة لمعرفة الذات والآخر وتشكيل الحياة الفردية والجماعية لمن يتبنى مقولاته وأدواته، على أن يختار الفرد ما يلائمه من آراء مطروحة في حقل العلوم النفسية ويبني حياته المعنوية والسلوكية بناءً عليه، أما الفرد العادي فله إلى تشكيل معرفته بذاته طرق عملائية ثلاث : انطباعه عن ذاته، نظرة المجتمع إليه، الأحلام والمطامح الفردية³⁶.

ناقش علماء النفس منذ انطلاقة هذا الفرع العلمي في القرن التاسع عشر قضية أساسية هي تجرد النفس الإنسانية³⁷، واعتبر جمع كبير من الباحثين الإخترايين أن النفس والجسد واحد وليس ثمة تجرد للروح، فهي تموت بموت الجسد، فالمساحة المعنوية التي يقوم عليها حراك الإنسان نحو العالم الحقيقي تم إلغاؤها إلى حد كبير والنقاش في أصل وجودها لا يزال قائماً، ناهيك عن إمكانية التشخيص والتوجيه لكيفية التعامل معها.

³⁴ الحيني، روح الله / الأريون حديثاً / الحديث الحادي والثلاثون.

³⁵ باساراب، نيكولسكو / العبر مناهية كإطار منهجي لتجاوز جدال الدين والعلم / مجلة المحجة / العدد 23 / صيف 2011 / ص 148.

³⁶ Encyclopedia of Psychology / Gale Group / 2001 / p 566.

³⁷ للإطلاع على وجهات النظر الإسلامية في هذا الموضوع راجع : الشيرازي، صدر الدين / الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة.

بالمقابل كان للوحي الإلهي الوضوح والحسم في هذا المبحث كما تعبر الآية الثلاثون من سورة الروم "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" ويشير الشهيد مطهري في كتاب الفطرة إلى أن "التعاليم الإسلامية مبنية على القبول بمجموعة من الأمور الفطرية، وهي جميع تلك الأمور التي نعتبرها ما وراء الحيوانية ونعدها قيمًا إنسانية. ترى المعارف الإسلامية أن لهذه القيم الإنسانية أصولًا في تكوين الإنسان، ولسوف نبين كيف أن الأصالة الإنسانية والمشاعر الإنسانية ترتبط بما فطر عليه الإنسان. إنه لقول فارغ ألا نعترف بوجود فطرة في الإنسان، أي أن ننكر وجود جذور لهذه القيم في الإنسان"³⁸، لكن المقاربة المادية التشيئية للإنسان تركت الباب مفتوحًا، تحت مقولة الحرية، لكي يتدع الفرد والمجتمع ما يرتؤون من المقاربات وأنماط الحياة وصولًا إلى تبديل خلق الله والمثلية الجنسية، فقد نسي الإنسان الغارق في المادية الإختزالية نفسه كما يقبر القرآن الكريم في الآية التاسعة عشرة من سورة الحشر "ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون"، وباعتبار أن الآراء والإبتداعات التي طرحت تحت مظلة العلوم الإنسانية كانت تجهل وجود الفطرة وبالتالي تفتقد لوجود أي شيء ثابت في النفس البشرية.

فأصبح تعدد الآراء والنظريات سببًا لتغرب الإنسان عن ذاته وعن الآخر وتم تفكيك العائلة وقبل ذلك تفكيك الفرد نفسه.

لم تصل المقاربة الظاهراتية للإنسان إلى إدراك حقيقة الوجود الإنساني والحاجة الأصلية التي تتفرع منها سائر الحاجات والغايات، والتي بتحقيقها تحل المشكلات المتعلقة بالحاجات الأخرى، وتنوعت النظريات التي تفسر النفس الإنسانية وتعرف أبعادها وجوانبها، ولم تعثر على تعريف ذات الوجود النفساني، وبالتالي أصبحت هذه النظريات المتنوعة والمختلفة فيما بينها تصويرًا لحالات النفس ومتغيراتها وأعراضها دون أن تطل الجواهر الحقيقي. ارتكزت على هذه النظريات رؤى تتعلق بالحياة الإنسانية ككل وكيفية تحقيق غاية الوجود الإنساني، ومن جهة أخرى ارتكزت إليها أدوات السيطرة والتأثير على الإنسان فردًا ومجتمعًا، وكذلك المناهج المتعلقة بحل مشكلات النفس الإنسانية المرضية والحياتية فأعطت علاجًا لمريض غير معروف الجواهر والهوية.

من ناحية أخرى فإن المقاربات المتكثرة والظاهراتية تنكر وجود الفطرة وبالتالي تجهل طبيعة الإنسان (غايته، صفات الكمال الحقيقي..). فغدا الإنسان المجهول الجواهر هو ضحية عالم النفس وموضوع للتحليل والمقاربات المتفاوتة الدقة والاكتمال، والمركزة إلى غموض في تعريف الذات الإنسانية، والتي ولدت مفاهيم ونماذج تحليل للموجود البشري تنطوي على أوهام وانطباعات اكتسبت الثقة من

³⁸ مطهري، مرتضى / الفطرة / مؤسسة البعثة / ص 26. والمزيد: اليزدي، محمد تقي مصباح / معرفة النفس لبنائها من جديد. وكذلك: مطهري، مرتضى / الإنسان الكامل / مؤسسة البعثة.

خلال استقرائها للشرائح الإجتماعية التي تعاني من أزمة روحية وتجهل حقيقة ذاتها ويضعف التأثير الروحاني في سلوكياتها الظاهرية وتركيبها العقلي والنفسي.

ونحن بطبيعة الحال عندما نعتمد على تلك الآراء التي أنتجت في تلك البيئة الثقافية والسلوكية فإننا نشكل وعينا بذواتنا على شاكلة تلك النفوس التائهة في ظلام عالم المادية والمنقطعة عن عالم المعنى، وما يعتبر ألكسيس كارل في كتابه الإنسان ذلك المجهول، الذي يشير عنوانه إلى عمق الإشكالية التي وقع فيها الفكر المادي، فإن "جهلنا بأنفسنا يعود إلى المنحى الوجودي الذي كان عليه أسلافنا، وإلى تعقيد الكائن الإنساني، وإلى بنية عقولنا"³⁹، فليس ثمة مصدر وحياني يضيء المناطق الخفية من هذا الكائن الذي نزل إلى الدنيا فاقداً للتوجيه الذاتي الروحاني الذي يملكه الملائكة أو المادي الذي للحيوانات ليستطيع الإختيار بنفسه بين طريق الهدى وسبيل الضلال⁴⁰.

سنلاحظ هذا الإنحراف بالتأكيد في نظريات العلاج النفسي وفي مجالات ومقاربات التوجيه الإداري على اختلافها، حتى تلك التي تستعمل القيم كأداة، وفي سرديات التدريب على الحياة وكذلك في نظريات الأخلاق النسبية التي تشكل مفتاح هدم الفرد والعائلة والمجتمع، وأيضاً في عناوين كثيرة أخرى، ولا بد لنا من الإلتفات إلى خطورة هذه الثقافة التي قد نلتفت في البداية بشكل واعٍ لانحرافها واختزالها للوجود الإنساني بأدنى مرتبة فيه، لكن بدون العقل النقدي المعياري وحضور المعايير بشكل دائم في الذهن، والمداومة على العودة للمرجعيات الإسلامية ستأخذنا أمواج المادية شيئاً فشيئاً إلى تبني المنظور الذي اكتسبناه بشكل منظم ومنضبط واضطررنا لحفظه في ذاكرتنا واعتبرنا نيلنا لهذه المعرفة سبباً للنجاح الأكاديمي والإجتماعي وخصنا النقاشات متمسكين بمقولاتها ونعلمها للآخرين كذلك. نحتاج في هذه المواجهة الفكرية إلى إدراك للذات وبنائها على أساس الوحي وتوجيهات أهل العصمة، ومعرفة الإنسان الكامل والشخصيات التي تربت في كنفه وعلى يديه، وكذلك وهو الأهم إعادة إحياء الرقابة المعنوية الذاتية على القلب والعقل والمخيلة بعد أن دفعنا الإشتغال بالمعرفة المجتزأة إلى إهمالها ربما ونسيانها، كي يبقى البعد المعنوي حياً وطارهراً وحاضراً في الوعي والإدراك فلا تستطيع المعارف الاختزالية أن تغييه عن الذهن.

9- البيئة / الإبتلاء

وقع المحاربون للكنيسة باسم العلم في مشكلة أساسية وهي الفراغ المعنوي والروحي الذي نشأ بفعل تغييب الإيمان الديني عن الحياة وقد أشار باحثون عديدون إلى مدى عمق هذه الأزمة التي نشبت في مرحلة التحول، ومنهم كافين هايمان في بحثه عن الإلحاد المعاصر⁴¹ حيث استعرض للأزمات النفسية

³⁹ Carrel, Alexis / Man, The Unknown / Wilco Books / 1959 / p 14.

⁴⁰ للمزيد: الريشهري، محمدي / فلسفة الوحي والنبوة / دار الحديث.

⁴¹ Hyman, Gavin/ Atheism in Modern History/ in: The Cambridge Companion to Atheism/ 2007/ P 27.

التي سببها انهيار المعتقدات التي كانت تسير حياة الفرد والمجتمع، وكذلك الكاتبة جينيفر هاكت في كتابها (نهاية الروح) الذي يتناول تلك الحقبة في درس للآثار التي تركها التحول التاريخي نحو انكار الدين والإيمان، ف "في زمن الجمهورية الفرنسية الثالثة التي تأسست عام 1871، استخدمت مجموعة من الملحنين ذوي الاتجاه اليساري الإثنوبولوجيا للمجادلة ضد الدين، ولغاية أكثر أهمية وإفاناً، استخدام شعائر هذا العلم الحديث للتعامل مع الضغوط النفسية والعزلة التي تزامنت مع فقدان الله والمجتمع الكنسي"⁴²، ونلفت النظر أن استخدام الكاتبة لمفردة شعائر يحيلنا إلى مسار تشكل الدين الجديد الذي تحدث عنه اوغست كونت.

انتقل العقل الإختزالي بالإنسان الغربي من حالة الإنسجام في منظومة كونية وعقلية متناسقة، على الأقل في وعي الأوروبي آنذاك، إلى حالة من التعددية والفوضى وغياب المعايير والتبدل على المستوى الفكري، وإلى العزلة من الناحية النفسية والعملية مترافقة مع السعي للتحكم بالنفس والمصير كما يشير ميغيل فارياس حيث "تم استبدال فكرة الإرادة الإلهية الفاعلة في ما وراء الطبيعة بقواعد القوة والضرورة، هذا الصدع العنيد بين الكائن البشري والعالم يجعل من السيادة الذاتية ضرورة حاسمة، عبرت الحركة الوجودية عن هذه الفكرة بوضوح شديد : ذاتية حركتنا تعني أننا متحررون من كل الحدوديات، وفي نفس الوقت وحيدون تمامًا، ولم يبق أمامنا أي خيار سوى حكم أنفسنا بأنفسنا.. وهذا التحكم الذاتي فتح الباب أمام المنافسة الفردية، الرغبة في السيطرة وتقديم الذات على أنها متميزة عن سائر الإنسانية"⁴³.

العزلة، غياب الرؤية الكونية الشاملة التي تفسر الوجود ومدرجاته الثابتة والمتحركة، السعي للسيطرة والمنافسة، عوامل ساهمت في تشكيل صورة سلبية عن الحياة والطبيعة والمجتمع، ولذلك نلاحظ أن السرديات الوافدة من أكاديميات ومنتديات العلوم الإنسانية الغربية المادية تصف البيئة على أنها فوضى وحالة عدائية تجاه الإنسان، لا أنها ساحة بلاء واختبار، فالنظرة الظاهرية تصف الواقع الديني على أنه فوضى لا غاية لها، ومجموعة من المصادفات والتشابكات، وتصفها بعض النصوص بأنها بيئة عدائية نتيجة التنافس الإجتماعي أو المتغيرات الطبيعية وتسارع الصراع الإنساني، وتقارب تلك الظروف تحت عنوان المشكلات، التي يسعى الإنسان لحلها كغاية بحد ذاتها، ولا تنظر إلى البعد التربوي الإلهي من هذه المشكلات التي يتغير مفهومها إلى الابتلاءات التي تهدف إلى الترتي والتكامل، بل تقدم شرحها وتوضيحها للواقع لغرض التأسيس للمنافسة والنجاح تجاه الإنسان الآخر.

⁴² Hecht, Jennifer / The End of The Soul : Scientific Modernity, Atheism, and Anthropology in France / Colombia University Press 2003 / p 2.

⁴³ Farias, Miguel / The Psychology of Atheism / In: Oxford Handbook of Atheism / 2016 / p 396.

تقتصر مقاربات العلوم الإنسانية المادية في تحليل أسباب المشكلة على الظروف المادية الدنيوية وتغفل الواقع الكوني الذي تتضمنه النظرة الشمولية، فتقع في اختزالية وضع الحلول على أساس دنيوي مادي، وتغفل العامل المؤثر الأكبر في نزول وارتفاع البلاءات. الإطار الاختزالي المتطرف هذا يمنع المرء من مقارنة المشكلات في حقيقتها وغاياتها وأسبابها وحلولها الواقعية، ويضعه في حالة صراع مع البيئة الإجتماعية والطبيعية وتنافس دنيوي مع الآخرين⁴⁴، فهي نصف البيئة الإجتماعية على أنها غابة، يعيش الإنسان فيها حالة عدم انسجام مع الذات. البيئة العدائية في النظرة المادية تجعل الإنسان يشعر بغياب الانسجام مع الذات والمحيط الكوني، فيقع في انقسام تجاه غاية الحياة والعمل والسعي وينظر إلى الزمن على أنه عدو، وبذلك تتراجع إمكانية اختراقه للإطار الاختزالي المتطرف نحو الرؤية الكونية الشمولية الواقعية، في مقارنة مع الحياة البدائية والإنسان القديم يقول أنطوني غدنز أن "غياب الحرب وانعدام اللامساواة في الثروة والقوة، والتأكيد على التعاون بدلاً من المنافسة في تلك المجتمعات تذكرنا كلها بأن العالم الذي خلقته الحضارة الصناعية الحديثة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مرادفًا لمفهوم التقدم"⁴⁵.

وفق المنهج المادي، فإن الإنسان يخرج من العبودية للظواهر والظروف والبيئة إلى حالة نسبية ومحدودة من السيطرة عليها، وتبقى هذه العناصر الإجتماعية والحياتية هي الموجود المتفوق والحاكم حتى عند السيطرة المجتزأة والنسبية للإنسان على مساحة محدودة منها. ولكن الله هو المؤثر الأكبر في هذه العناصر، والقادر على التغيير فيها لصالح التكامل الإنساني. أعطى الوحي الإلهي مساحة كاملة لهذه القضية بتشعباتها المختلفة، وهناك آيات عديدة تقدم التفسير الذي يحتاجه الفرد للتعامل مع الظروف الفردية والإجتماعية المختلفة دون الوقوع في الإنعزال أو العدائية، ففي الآية الثامنة والأربعين من سورة المائدة تأكيد على أن الاختلاف بين الناس وتعدد الأمم له غاية متعالية وليس أمرًا عبثيًا "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات"، وكذلك تأتي الآية الخامسة والستين بعد المائة في هذا السياق لتوضح الغاية من التعدد الطبقي الإجتماعي "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم"، وفي الصراع بين الحق والباطل أعطت الآية السابعة عشرة من سورة الأنفال توضيحًا لغاية الاقتتال، فهو ليس هدفًا بحد ذاته "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسنًا".

الآيات القرآنية الكثيرة التي وصفت الحياة الدنيا بأنها دار بلاء، توضح واقع المسرح الإنساني وفلسفة الحراك في القبض والبسط في أحوال الفرد والمجتمع، ولكن النظرة المجتزأة والمباشرة إلى هذا المسرح

⁴⁴ Farias, Miguel / The Psychology of Atheism / In: *Oxford Handbook of Atheism* / 2016 / p 396.

⁴⁵ غدنز، أنطوني / علم الإجتماع / المنظمة العربية للترجمة / ص 93.

جعل ما هو موجود خلف الكواليس مهملاً ومغفلاً عنه، وبالتالي نحن عندما ننظر بالعين والعقل الغربي المادي إلى المسرح سنشاهد البيئة العدائية وعدم الإنسجام في كل ما يحصل من فوضى في الحياة الشخصية والعامة، وقد اشار الإمام في شرحه لبعض الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام إلى هذا الوصف الواقعي، حيث نرى أن "كل عطاء وتوسعة ومنع امتحان للإنسان، كما أن كل أمر ونهي وتكليف يكون لامتحان أيضاً. فإن بعث الرسل ونشر الكتب السماوية لغربة الناس، ولفصل الأشقياء عن السعداء، والمطيعين من العصيين. ومعنى امتحان الحق المتعالي للناس واختبارهم هو الفصل الحقيقي الواقعي على صعيد الخارج للناس بعضهم عن بعض، لا العلم بالفصل، لأن علم الحق جل جلاله أزي ومتعلق ومحيط بكل شيء قبل إيجاده"⁴⁶، ويقول في مكان آخر "لو أننا أدركنا أن كل ما في الوجود هو من الله ولمصلحتنا وتربيتنا، ولو أن الإنسان أدرك هذا المعنى إدراكاً حقيقياً، ورآه بعين الحقيقة، وذاب فيه، لحلت الأمور كلها"⁴⁷.

نلاحظ الإشكاليات المتعلقة بالنظر إلى البيئة وعالم الحياة في مطاوي العلوم الإنسانية المادية على اختلاف قضاياها ولكن بشكل اساس في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التحليلي والتدريب على الحياة والتوجيه الإداري والتدخل الاجتماعي وحل المشكلات، فيما تمتلئ الآداب والفنون ذات المنشأ الغربي المادي بالتعبيرات المتنوعة عن أزمة الإنسان في مواجهة العالم، وتلعب هذه الآداب والفنون دور التوطئة والتمهيد لتلقي الأفكار والنظريات العلمية من قبل الجمهور والنخب على حد سواء، ونحن إذ نتعرض لهذه الرؤى والمقاربات السلبية والعبثية، سواء كانت في قوالب فنية و أدبية أو علمية أكاديمية، نحتاج إلى جهد للحفاظ على رؤيتنا الكلية التي أوضحها الوحي المقدس تجاه البيئة الدنيوية الإبتلائية، جهد روحي وسلوكي إلى جانب الجهد المنهجي والفكري الذي يمكن أن يبدأ من خلال توسيع نطاق البحث الإسلامي في قضية البلاء الفردي والاجتماعي وجعلها باباً علمياً وبحثياً كاملاً، فتح مجال للأبحاث التطبيقية المنطلقة من البلاءات الدنيوية لفهمها من الناحية الإسلامية ووضع حلول إسلامية لها، ووضع منظور إسلامي متكامل لنظرية حل المشكلات تحت عنوان "مقاربة الابتلاءات".

10- استقلال / ارتباط

إمكانية تعايش الأفكار الإختزالية مع الإيمان بالله في عقل واحد سؤال هام يطرح نفسه عند التأمل في إشكالية بحثنا ومندرجاتها التطبيقية، وهي قضية محورية في طريق تفكيك آثار التبني الفكري والعملية لمقولات المدرسة المادية، وحين نرى أن الإسلاميين المتدينين يتداولون هذه الأفكار ويتبنونها ويدافعون عنها كذلك، فإننا في العودة إلى التاريخ الأول للفكرة الإختزالية سنجد حالة مركزية مماثلة في مقولة

⁴⁶ الإمام الحنفي / الأربعون حديثاً / الحديث الخامس عشر / البلاء.

⁴⁷ صحيفة الإمام / الجزء 19 / ص 308.

ديكارت "أنا أفكر إذن أنا موجود" التي أسست لاستقلال الإنسان تجاه الكنيسة والله، فهي لم تصدر عن خلفية إلحادية وإنما كانت في مرحلة تاريخية شهدت حراكاً فكرياً يهدف لسد المساحة المهملة في الإطار المعرفي الكنسي، وعلى حد قول ماسترسون ف "من النظرة الأولى، قد يبدو للمرء أنه من المستهجن أن يتم وصف فكر ديكارت كمصدر مهم للإلحاد لأن الرجل كان مسيحياً واثقاً وكان يعتبر أن كامل فلسفته هي دفاعٌ بالغ القوة عن الإيمان بالله. بالفعل، فإن فكرة الله التي يُشتق منها إثبات وجوده هي سمة لا غنى عنها إطلاقاً في منظومته الفلسفية. بالرغم من ذلك، ينبغي أن نفرّق بين نوايا أي مفكر وإثباتاته الصريحة من ناحية، وبين المنطق الضمني لمنهجه ومبادئه من ناحية أخرى"⁴⁸، وينقل ماسترسون في نفس السياق عن الباحث الإيطالي كورنيليو فابرو إشارة إلى مدى تأثير فكرة ديكارت عن المناخ الثقافي إبان طرحها "في القدم وبالفعل وصولاً إلى نقطة بروز الفكر المعاصر، مثل الإلحاد ظاهرة متفرقة تقع ضمن حدود النخبة الثقافية، ولكن بمجرد بروز الكوجيتو على الساحة فقد اتخذ الإلحاد بُنية محيطة وبشكل متزامن اجتاحت الحياة العامة والسلوك الفردي"⁴⁹.

إذن نشأت فكرة اختزالية شديدة التأثير في حضان عقل متدين ومنتمي إلى الثقافة الدينية المسيحية، وإن كان تأويل أو نمط تداول واستخدام الكوجيتو مختلفاً عما أراده الكاتب وقد تأثر بالظرف السياسي والتاريخي إلى حد كبير، إلا أن المهم هو ما تبينه هذه الحالة من إمكانية التساكن النظري بين الإيمان القلبي والأفكار الإختزالية في شكل من أشكال التنافر المعرفي⁵⁰ اللاواعي، كما تظهر أنه يمكن للفكرة المعزولة عن الإطار الديني أن تؤول في سياق اختزالي ويتم تداولها على هذا الأساس، وكذلك يمكن للعقل المتبني للفكر الديني أن ينتج فكرة اختزالية دون الإلتفات إلى مندرجاتها في حال غابت عنه المعايير الدينية الضابطة.

شرعت مقولة ديكارت لاستقلال الإنسان الوجودي رغم الإعتراف بوجود الإله، فأصبح الإنسان وفق هذه النظرة يتحرك في دائرة التفويض بعيداً عن التدخل الإلهي والقيومية الربانية، ومن خلال هذا المدماك الرئيسي الذي نشأ في بيئة مؤاتية تم التأسيس للمقاربة الإستقلالية في معرفة الإنسان، فنلاحظ بكل وضوح أن العلوم الإنسانية المادية التي ولدت في ذلك الزمان تنكر ارتباط الإنسان بالله، من خلال النظر إلى الظاهرة الإنسانية بشكل مستقل فهي تنظر إلى الظاهرة الإنسانية، الفردية والاجتماعية، على أنها حالة قائمة بحد ذاتها، لا تتأثر وفق السنن الكونية الإلهية التي وردت في القرآن، بل اكتفت بقراءة تأثير العوامل الظاهرية القشرية، فاخترلت العوامل الكلية والحقيقية التي تسبب وتنتج الأسباب والمؤثرات الظاهرية وتحكم بها، واستغرقت في دراسة التفاصيل والجزئيات، ووضعت نظريات

⁴⁸ Masterson, Patrick / Atheism and Alienation / Penguin Books / 1973 / p

⁴⁹ Masterson, Patrick / Atheism and Alienation / Penguin Books / 1973 / p

⁵⁰ Cognitive Dissonance.

حل المشكلات الإنسانية، الفردية والاجتماعية، استنادًا إلى تنظيم وهندسة المؤثرات الظاهرية والجزئية، مشكلةً إطارًا فكريًا يغيب الحضور الإلهي الفاعل والمؤثر على صعيد السنن وعلى صعيد القيومية المباشرة، وبذلك يتحول الباحث والعامل وفق هذه المعارف إنسانًا غافلاً عن هذا الحضور، ومنتجًا نحو التأثير والتأثر بتلك العوامل القشرية.

في هذا السياق تعرف موسوعة روتليدج للفلسفة الإتجاهات الأنسية موضحة ترسخ ومركزية هذه النزعة الإستقلالية "التزام تجاه منظور ومصالح ومركزية الإنسان الفرد، اعتقاد بالعقل والإدارة الذاتية كخصائص تأسيسية للوجود الإنساني، إعتقاد بأن أسس الأخلاق والمجتمع تنبع من الإدارة الذاتية والمساواة الأخلاقية"⁵¹، ويورد الباحث جورج ستاك في مساهمته للموسوعة ذاتها في تعريف الأيديولوجيا المادية قضية تظهر مدى الجموح نحو فكرة الإستقلال عن الله حيث "أنتج عالم الفلك والرياضيات بيير لابلاس (1749 – 1827) نظرية فلكية متطورة، يعرض فيها لقدرة العقل المتفوق الذي يدرك كل ظروف وشروط الموجودات على توقع الحالة الكلية للكون في اللحظة القادمة، وعندما اطلع نابليون على هذه النظرية كان لديه تعليق حول غياب أي ذكر لله في الأطروحة، فرد لابلاس : لم أكن بحاجة لهذه الفرضية"⁵².

العلوم الإنسانية المادية وبهذه المقاربة الإستقلالية تنفي آثار التوكل في الحياة الفردية والاجتماعية، فالإطار الاختزالي هنا ينظر إلى الإنسان على أنه مفوض إلى أمره، ويقطع مع الحضور والتدخل الإلهي، وبذلك يغيب من الفكر والذاكرة والمنهج مسألة التوكل على الله والتواصل معه في مقاربة الأمور الدنيوية، فاليد الإلهية في المنظور المادي مغולה ومنفصلة عن الكون والإنسان. ويشير عبد الكريم سروش في كتابه السياسة والتدين إلى ما بدأنا به النقاش هنا حول المساكنة بين التدين والإختزال على مستوى السلوك والتفكير، فبنظره أنه "في العالم الحديث فإن العقلانية الحديثة الحاصلة من العلوم التجريبية الجديدة، تشكل محور وعمود الخيمة لذهنية الإنسان المعاصر، وهذا العلم قد عمل وبسبب هيمنة المنهج المادي، إلى تحويل الأنظار إلى الأرض بدلًا من السماء، وطبعًا فليس معنى ذلك أنه لا يوجد أي إنسان في هذا الزمان يملك فكرًا دينيًا أو عرفانيًا، أو أن جميع البشر حولوا أنظارهم من آفاق السماء إلى الأرض والمادة، المقصود هو أن السائد في العالم الحديث وفي قلب الحداثة هو غلبة الفكر المادي وغير الديني، وقد تم وضع الفكر الديني في هامش حياة البشر، فالناس في هذا العصر يتحركون في تدبير أمورهم ومعيشتهم بعيدًا عن فكرة التوكل وتفويض الأمور إلى الله، حيث يعتمد الناس على أنفسهم أكثر من اعتمادهم على الله"⁵³.

⁵¹ Routledge Encyclopedia of Philosophy / Humanism.

⁵² Routledge Encyclopedia of Philosophy / Materialism.

⁵³ سروش، عبد الكريم / السياسة والتدين / مؤسسة الإبتشار العربي / 2009 / ص 38.

تاريخياً كان للحركة الإصلاحية البروتستانتية دور في تكريس الاتجاه الفردي الاستقلالي كما يشير المؤرخ ديفيد مارتن : "المنطق البروتستانتى كان يتجه بوضوح نحو مبدأ الإختيار الإرادي، إلى حد كان غير واقعي من الناحية الإجتماعية"⁵⁴، وكان لذلك أثر كبير في إطلاق الحراك ضد المنظومة السياسية الدينية القائمة آنذاك، والتي ذهبت كما أسلفنا نحو المواجهة الجذرية بالتدرج، وهنا يتحصل الاتجاه الفردي في اتجاهين، الأول العزلة تجاه المجتمع ومحورية تميز الذات تجاه الآخرين كغاية لحياة الفرد، والثاني استقلالية الإنسان عن الإله الخالق، وهذا ما يعبر عنه الباحث ستيف بروس بنظرة باردة إلى حالة تفكك العائلة والجماعة والمجتمع : "نظم الإعتقاد الجماعي تحتاج إلى لحمة إجتماعية، استمرار الدين يتطلب من الأفراد الخضوع للجماعة، وفي بعض الظروف، كما في حالات الصراع الديني أو الإثني، يتم حد سيطرة الفرد على ذاته من خلال الهوية الجماعية، وفي حالات الديمقراطية المرفهة والمستقرة في الغرب يحتفظ الفرد بحقوق السيادة الذاتية الإستهلاكية"⁵⁵.

مقابل الكوجيتو الاستقلالي إلى حد التفويض نجد لغة الوحي الإسلامي الواضحة والنقيضة في الآية السابعة عشرة من سورة الأنفال "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، فهنا نرى التدخل الإلهي على مستوى التفصيل، في حين أن النظرة الوجودية التي شرعها ديكرت تنفي إمكانية هذا التدخل وتنفي القيومية الربانية⁵⁶. وفي الآية السابعة عشرة من سورة الأنعام نرى النظرة النقيضة كذلك للطرح الإختزالي في قضية استقلال الإنسان "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير"، وفي سورة الملك الآية الواحدة والعشرين "أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور" وعلى حد تعبير هيلوليت مارتينيز فقد اتخذ العلم، بالمفهوم الإختزالي، اتجاهًا واضحًا نحو نفي التدخل الإلهي في شؤون الإنسان حيث "يبني العلم نماذج ليس لها صلة بالتدخل الإلهي"⁵⁷، ويلفت السيد الطباطبائي إلى علاقة عقيدة الإستقلال بالإلحاد في تفسير الميزان في عرضه لمنطق النص الوحياني "جعل الكفر بالنعمة غاية للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غاية لهم في مسير حياتهم إلا الكفر بنعمة الله و عدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس و المادة أورثهم في قلوبهم ملكة التعلق بالأسباب الظاهرة و إسناد النعم الإلهية إليها و ضربهم إياها حججا ثخيناً على عرفان الفطرة فأنساهم ذلك توحيد رهم في ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمة أسبابها الظاهرة دون الله، و يتعلقون بها و يخشون انقطاعها و يخضعون لها دون الله فكأنهم بل إنهم لا غاية لهم إلا كفر نعمة الله و عدم شكرها"⁵⁸، ونجد في نصوص أهل العصمة عليهم السلام التشريح العملي لحالة الإرتباط مع الله سبحانه

⁵⁴ Martin, David / The Dilemmas of Contemporary Religion / Blackwell publishing / 1978 / p 9.

⁵⁵ Bruce, Steve / Secularization / in: The Blackwell Companion to The Study of Religion / Blackwell Publishing / 2006 / p 428.

⁵⁶ Rocca, Michael / Causation Without Intelligibility and Causation Without God in Descartes / in: A Companion to Descartes / Blackwell Publishing / 2008 / p 241.

⁵⁷ كلشني، مهدي / حوارات العلم والدين / مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي / بيروت، 2009 / ص 225.

⁵⁸ الطباطبائي، محمد حسين / تفسير الميزان / الجزء 12 / ص 141.

وتعالى في الجزئيات حتى الباطنية منها، وأحد العبارات الشديدة الوضوح في هذا السياق تلك التي وردت في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام "اللهم وفر بلطفك نيتي"، فحتى النية يمكن طلبها من الخالق، كما يعبر أمير المؤمنين عليه السلام عن نفس هذا المبدأ بقوله المشهور "عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم".

لنهضة الصناعية، كما يحلو للبعض أن يسميها، لعبت دورًا كبيرًا في جعل مقولات الإستقلال والتفويض أكثر مقبولية، ولا يزال التطور التكنولوجي المتراكم والمتسارع يلعب دورًا مؤثرًا في تنمية ودفع الإتجاه الإختزالي في هذه القضية، التي تعد أحد أهم موارد الإنحراف الفكري في الزمن الحالي، ونجد النصوص التي تشرع هذا الإتجاه وتحوله إلى فقه للحياة في مجالات كثيرة ضمن مكتبة العلوم الإنسانية من علم الإدارة والسياسة إلى العلوم النفسية النظرية والتطبيقية وفروع علم الإجتماع المختلفة، وكل ما له دخالة بالتدبير العملي لحياة الفرد والمجتمع. وفي طريقنا نحو العودة إلى مرجعية الوحي نحن نحتاج للإلتفات إلى محورية التوكل على الله في الجزئيات كما في الكليات في تحصيل أنفسنا من الوقوع في آفة توهم الإستقلال كما يصفها الإمام الخميني سلام الله عليه، نقد وتمحيص النظريات والمقاربات المستندة إلى التفويض من خلال معرفة معمقة بمقولة الأمر بين الأمرين ومتعلقاتها في الأخلاق والتربية الإسلامية، وإحياء العقل النقدي عند الإحتكاك مع النصوص والكراريس الإختزالية.